آدابٌ وقِيَمٌ

(أحاديث شهر رمضان لعام: ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

آدابٌ وقِيَمٌ

(أحاديث شهر رمضان لعام: ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م)

أحمد الطيب

شيخ الأزهر الشريف

رئيس مجلس حكماء المسلمين

الحكماء للنشر

(١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م)


رقم الإيداع

الفهرس الإجمالي

طليعةُ الأحاديثِ

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّم وبارَكَ على سيِّدِنا ومولانا محمَّدٍ وعلَى آلِه وصحبِه، ومَن سارَ عَلَى نهجِه.. وبعدُ:

فهده أحاديثُ كنتُ قد أعددتُها بمناسبةِ شهرِ رمضانَ مِنَ العامِ الماضي: ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م وألقيتُها مِن خلالِ بعضِ الفضائياتِ المصريَّةِ والعربيَّةِ طوالَ أيامِ الشَّهرِ المبارَكِ .. وقد راعيتُ في إعدادِها - قَدْرَ الطَّاقَةِ- أمرينِ:

الأَوَّل: ارتباطُ موضوعاتِها بكثيرٍ مِن الآدابِ والقِيَمِ ومشكلاتِنا (الأخلاقيَّةِ) والاجتماعيَّةِ، التي تعيشُها أُمَّتُنا: العربيَّةُ والإسلاميَّةُ، والتي كان لها دَورٌ أساسٌ في هذا التَّعثُّرِ على طريقِ التَّقدُّمِ والتَّطوُّرِ الذي كان أبناؤُها -ولا يزالون- يأملُونه وينتظِرونَه رغمَ كُلِّ العوائقِ والعَقباتِ التي تُراوِحُ مكانَها منذ قرنَينِ مِنَ الزَّمانِ.

الثاني: الحِرصُ على الإيجازِ في هذه الأحاديثِ واختصارِها في أسلوبٍ سهلٍ ميسورٍ، يتمكَّنُ معَه المشاهِدُ أو السَّامِعُ مِن متابعَةِ موضوعِ الحلقةِ، واستيعابِ مقدِّماتِه وما يرمِي إليه مِن غاياتٍ وأهدافٍ.. ولم أَخرُجْ عن خطتي هذه إلَّا في حَلقاتِ «التَّوَكُّلِ» التي اضطرِرتُ إلى التَّوسُّعِ فيها قليلًا، واستخدامِ مفرداتٍ قد لا تَطْرُقُ أسماعَ المشاهِدينَ عادةً، لكنَّها لا تلتوِي على مدارِكِهم وفُهُومِهم.

وقد دفعَنِي إلى الخروجِ في قضيَّةِ «التَّوكُّلِ» عن المعهودِ في باقِي الحلقاتِ من يُسرٍ وسهولةٍ:

- أنَّ قضيةَ العَلاقةِ بينَ «الأسبابِ» و «المسبباتِ» والعِلَلِ ومعلولاتِها، أو ما يُسمَّى بموضوعِ «العِلِّيَّةِ» هي قضيةٌ فلسفيَّةٌ ذاتُ ارتباطٍ وثيقٍ بالمباحثِ الدِّينيَّةِ والمباحثِ العلميَّةِ التجريبيَّةِ الحديثةِ، وقد ناقشَها عُظماءُ فلاسفَةِ المسلمين ومتكلِّمِيهم؛ كابنِ سينا والغزاليِّ وابنِ رُشدٍ، كما ناقشَها أيضًا فلاسفةُ الغَربِ المحدَثِينَ مِن أمثالِ ديفيد هيوم.

ويتجلَّى ارتباطُ قضيَّةِ «العليَّةِ» أو «السببيَّةِ» بمفهومِ «التوكُّلِ على اللَّهِ تعالى» حين نلاحظ أنَّ المؤمنَ كثيرًا ما يبقَى حائرًا

مذبذبًا لا يدرِي أيتوكَّلُ على اللَّهِ حَقَّ التَّوكُّلِ ويضرِبُ بالأسبابِ عُرْضَ الحائطِ، أم يتوكَّلُ على اللَّهِ وعلى الأسبابِ، معَ المجازفةِ بالوقوعِ فيما يُشبِهُ نوعًا مِن تأليهِ الأسبابِ، وإثباتِ قدرةٍ وإرادةٍ لبعضِ الجماداتِ وتأثيرِها في البعضِ الآخَرِ؟!

- وأمرٌ آخَرُ دفعني إلى التَّعرُّضِ لقضيَّةِ «العِلِّيَّةِ» بشيءٍ يسيرٍ مِنَ التَّحليلِ هو ما لاحظناه مِن إقدامِ بعضِ الأقلامِ على تناولِ هذا الموضوعِ عندَ الأشاعِرَةِ على صفحاتِ بعضِ الجرائدِ، وعرضِه بأسلوب فيه مِنَ السُّخريَةِ السَّاذَجَةِ أضعافَ أضعافِ ما فيه مِنَ العِلمِ الجادِّ والمعرِفَةِ العميقَةِ، والإلمامِ بما جادَت به قرائحُ فلاسِفَةِ الشَّرقِ والغَربِ في هذا الموضوعِ مِن أنظارٍ فلسفيَّةٍ بالغةِ الدِّقَّةِ والعُمقِ.

هذا، ولا يفوتني في مقدِّمةِ هذه الأحاديثِ أن أُزجِيَ الشُّكرَ خالصًا لكُلِّ مَن أسهَم في إخراجِ هذا العملِ المتواضعِ، سواءٌ على الشَّاشاتِ الفضائيَّةِ أم على صفحاتِ هذه الأوراقِ التي أرجو اللَّهَ تعالى أن ينفعَ بها قارِئَها، وأن

يغفِرَ لكاتِبِها ما عساه قد فَرَطَ منه مِن خطأٍ غيرِ مقصودٍ أو تقصيرٍ غيرِ متعمَّدٍ.

أحمد الطيب

شيخ الأزهر

مدينة القُرنة: **٢٢** جمادى الأولى **١٤٤٢**هـ

٦ يناير **٢٠٢١**م

الصِّيام في شريعة الإسلام

السَّادةُ المشاهدونَ:

السلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه. . . كلُّ عامٍ وأنتم بخيرٍ، بمناسبةِ حُلولِ هذا الشَّهرِ الكريمِ المبارَكِ. . شهرِ رمضانَ. . شهرِ الخيرِ والبركةِ، شهرِ المغفرةِ والرحمةِ والعِتقِ منَ النَّارِ، وإنَّا وفي هذه الساعاتِ الأولى من هذا الشهرِ، لَنسألُ المولَى -سبحانَه- العفوَ والعافيةَ مما أصابَ البلادَ والعبادَ، واللُّطفَ بما نزلَ بنا وبغيرِنا منَ البأساءِ والضَّراءِ. . آمينَ.

وأُذكِّرُ نفسِي وأُذكِّركُم بما نَعلمُه جميعًا من نداءِ اللَّه تعالَى للمؤمنينَ في الآيةِ الكريمةِ التي يَحفظُها الجميعُ، وهي قولُه سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤].

أذكِّركُم ببعضِ ما تضمَّنتْه الآيةُ من إشاراتٍ لا ينبغي أبدًا أن

نَغْفلَ عن مرامِيها، وعن دلالاتِها، فهي نداءٌ للمؤمنينَ بأن لا يستوحشوا من رمضانَ، وألَّا يستثقِلوه، وألَّا يستقبلوه بصدرٍ ضَيِّقٍ، فالذين آمنوا لم يتفرَّدوا وحدَهم من بين سائر الأممِ بهذه الفريضةِ، فهذا التَّكليفُ ليس قاصِرًا عليهم دُونَ غيرِهم، بل كتبَه اللَّهُ على الأممِ السابقةِ أيضًا، وإن كان لم يُبيِّنْ لنا كيفيَّةَ الصومِ المفروضِ عليهم، ولا نوعَه، ولا وقتَه.

والتَّاريخُ يحدِّثنا أنَّ «الصومَ» عبادةٌ معروفةٌ لدى القدماءِ، حتى لدى غيرِ المؤمنينَ من الوثنيِّينَ واليونانِ الأقدمينَ والرومانِ، ويؤكِّدُ المؤرِّخونَ أن الصوم كان رُكنًا من أركانِ عبادات هذه الأمم: طبَّقتْه البراهمةُ، وفرضَتْه على الجميعِ، حتى على الشيوخِ وعلى المرضى[1]، كما طبَّقتْه طوائفُ «اليوجا»؛ فكانوا يصومونَ صَومًا مُتواصِلًا من عشَرةٍ إلى خمسةَ عشرَ يومًا، لا يتناولونَ في أثنائها إلا حَسَواتٍ من ماءٍ.. والأمرُ كذلك عند البوذيَّةِ؛ يصومونَ يومًا وليلةً لا يذوقونَ فيها شيئًا، وكذلك الصينُ وقدماءُ المصريينَ والرومانِ.

---

(١) حكمة الصيام في الإسلام، لمحمد فريد أبو حديد: مقال في «مجلة الأزهر» ٩ رمضان ١٣٥٣هـ. ص ٦٢١.

والصومُ من شعائرِ الدِّينِ عند اليهودِ ومنصوصٌ عليه في «التَّوراةِ»، ومِن قدمائِهم مَن كانوا يصومونَ يومًا كامِلًا من المساءِ إلى المساءِ، ويضمُّون إلى الصَّومِ عن الطَّعامِ والشَّرابِ النومَ على الحصى والتُّرابِ.

والأمرُ كذلك عند المسيحيينَ يصومونَ أربعينَ يومًا، ويَمتنِعونَ عن أَكلِ اللُّحومِ بأنواعِها كافة، وما يَنتُجُ عنها من لبنٍ وجُبنٍ وزُبدٍ، وكلُّ هذا يُفسِّرُ قولَه تعالَى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهو تأنِيسٌ للمسلمينَ، وترغيبٌ لهم في تأديةِ هذه الفريضةِ التي تمثِّلُ رُكنًا ثابِتًا من أركانِ الدينِ في كلِّ زَمانٍ ومَكانٍ.

ثمَّ تأتي الإشارةُ الثَّانيةُ في الآيةِ في قولِه تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ حيثُ يُشيرُ التَّنكيرُ في قولِه ﴿أَيَّامًا﴾ إلى القلَّةِ، وإلى التَّهوينِ، مما يُشجِّعُ المؤمنينَ على المسارعةِ لتلبيةِ النِّداءِ بصَومِ هذا الشَّهرِ، وكأنَّ القرآنَ يقولُ: إنَّ صومَ رمضانَ أمرٌ هيِّنٌ على المؤمِنِ، ولا يَليقُ أن يتركَه المسلمُ والمسلمةُ إلَّا لعُذر شرعيٍّ من مرضٍ وسفرٍ وغيرِهما.

وتأتي الإشارةُ الثَّالثةُ لتُفيدَنا أنَّ الغايةَ مِن الصَّومِ هي

تقوى اللَّهِ، بمعنى مُراقبةِ اللَّهِ تعالى في كلِّ صغيرةٍ وكَبيرةٍ، ومحاسبةِ النَّفسِ، وحَبسِها عن الشَّرِّ وإطلاقِ عِنانِها في الخيرِ.

ومما يَجبُ التَّنبُّهُ له في أمرِ «الصَّومِ» هو أنَّ كثيرينَ يُخيَّلُ إليهم أنَّ الصومَ يكفِي فيه الامتناعُ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ وما إليهِما من دَعواتِ الغَرائزِ والشَّهواتِ.. وهذا ليسَ بصَحيحٍ؛ لأنَّ هذا النوع من الصيام هو صومُ المعدَةِ، وهو أحدُ أنواعِ الصِّيامِ التي تتعدَّدُ بتعدُّدِ جوارحِ الإنسانِ؛ فللعينِ صومٌ، وللسانِ صومٌ، ولليد صومٌ، وكلُّها أنواعٌ من الصَّومِ والإمساكِ والامتناعِ لا مَفرَّ منها لتدريبِ المسلمِ على الكفِّ عن محارمِ اللَّهِ منَ النَّظرةِ الآثِمةِ، واستباحةِ الكَذِبِ، وقولِ الزُّورِ، والسُّخريةِ من النَّاسِ، وسَماعِ الغِيبَةِ والنَّميمةِ، وتَرويجِ الأكاذيبِ والأراجيفِ، وإيذاءِ الآخَرِ باللسانِ أو اليدِ، قال ﷺ: «**المسلمُ مَنْ سَلِمَ الناسُ من لِسَانِه ويدِه**»(١).

وإن من أدلِّ الدَّلائلِ على أنَّ معنى الصومِ في الإسلامِ أوسعُ وأشملُ بكثيرٍ من معنى الامتناعِ عنِ الطَّعامِ والشرابِ

(١) أخرجه -بهذا اللَّفظ- أحمد في «مسنده» (٧٠٨٦) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما، والحديث أصله في «الصَّحيحين» بنحوه.

قولُه ﷺ: «**مَنْ لم يَدعْ قولَ الزُّورِ والعملَ به، والجهلَ، فليسَ للَّه حاجَةٌ في أن يَدَعَ طعامَه وشرابَه**»[١]، وأيضًا قولُه ﷺ: «**رُبَّ صائمٍ حظُّه من صيامِه الجوعُ والعطشُ**»[٢].

المشاهدُ الكريم:

إنَّ فلسفةَ رمضانَ هي التَّدريبُ على مَلكةِ الاعتلاءِ والارتفاعِ والاستغناء، وامتلاكِ الإرادةِ، والقُدرةِ على التَّركِ، والتَّحرُّرِ من عبوديَّةِ الشيطانِ والنَّفسِ والهوى والفُجورِ، إنها تقوَى اللَّه في السرِّ والعَلَنِ.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (**١٩٠٣**) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النَّسائيُّ في «السُّنن الكبرى» (**٣٢٣٦**) وابن ماجه في «سننه» (**١٦٩٠**) وأحمد في «مسنده» (**٨٨٥٦**) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مدخلٌ لقضيَّةِ جائحة «كورونا»

أيها المشاهدونَ الأكارمُ:

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

يأتي علينا رمضانُ هذا العامِ وَسْطَ ظروفٍ صعبةٍ، وبمذاقٍ مختلِفٍ عما عَهِدْناه به في الأعوامِ والعُقُودِ السابقةِ. . . إنه مذاقُ الخوفِ والتَّوترِ، بل الرُّعبِ الذي أصابَ الناسَ في كلِّ مكانٍ، ولم تنجُ منه دولةٌ من الدُّولِ، ولا عاصمةٌ من عواصِمها. . ألَا وهو تفشِّي وباءِ كورونا.

يأتي هذا الكابوسُ ولمَّا نُفِقْ -نحنُ الشرقيِّينَ- من كوابيسِ حروبٍ فُرِضَتْ علينا فرضًا، ودَفَعْنا ولا زِلنا ندفَعُ -نحنُ العربَ والمسلمينَ- ثمنَها غاليًا ومُكلِّفًا، بل باهظَ التَّكلفةِ من الدِّماءِ والتَّشرُّدِ والخَرابِ والتَّدميرِ، وقد صدقَ المَثَلُ السَّائرُ: «إنَّ المصائبَ لا تأتي فُرادى».

نعم دَهَمَنا تفشِّي هذا الوباءِ القاتِلِ، وبدلَ أن كنَّا نخشَى الموتَ على جنودِنا وقوَّاتِنا، أصبَحنا نَخشَى الموتَ في

بُيوتِنا ومَراقدِنا ومع أَهلِينا وأبنائِنا. . العالمُ اليومَ لم يَعُدْ يذكر السلاحَ النَّوويَّ ولا أسلحةَ الدمارِ، فقد أصبحَ هذا الخوفُ من هذا الخطر نوعًا منَ التَّرفِ في تلمُّسِ الأمنِ والطُّمأنينةِ إذا ما قِيسَ بالرعبِ من «فيروس كورونا» الذي لا يَعرِفُ الحدودَ، ولا السُّدودَ، ولا حواجزَ الأبراجِ والقُصورِ والبُيوتِ المُشيَّدةِ.

ومن وحيِ هذه الكارثةِ، أو قُل: مِن كابوسِها. يتساءلُ كثيرٌ مِن النَّاسِ عن نشأةِ هذا «الفيروس»: هل جاءَ نتيجةً لبعضِ التَّجارِبِ المعمليَّةِ، ثم خَرجَ عن سَيطرةِ العِلمِ والعُلماءِ؟ ومبلغُ علمِي المتواضِعِ في هذا الأمرِ أنَّه لا توجدُ، حتى الآن، حُججٌ أو براهينُ يَستنِدُ إليها أيٌّ من أنصارِ هذه الأطروحاتِ؛ لأنَّ جميعَها لم تعتمِد على مصادرَ علميَّةٍ دقيقةٍ، أو معلوماتٍ حقيقيَّةٍ موثوقةٍ، وهو ما أكَّدته منظمةُ الصِّحةِ العالميةِ التي نفَت صِحَّةَ ذلك.

في المقابل نجدُ أصواتًا أخرى ترى أنَّ هذا الوباءَ هو عقابٌ من اللَّه لبعضِ الدولِ أو المجتمعاتِ، وهذا قولٌ خاطئٌ أيضًا ومردودٌ عليه، فها نحنُ نرى أن الوباءَ يُصيبُ جميعَ الدولِ والشعوبِ بغضِ النَّظرِ عن دينِها ومعتقدِها وإيمانِها، كما أن المسلمينَ في عهدِ الخليفةِ العادلِ سيدِنا

عمرَ بنِ الخطابِ ﵁ أصابَهم طاعونُ عَمْواسَ، وماتَ بسببه الكثيرُ من كبار الصحابةِ ﵃[١]. ثم إنَّ الأنبياءَ هم أشدُّ النَّاسِ بَلاءً يليهم الأولياءُ والصالحون.

إذًا فوباءُ كورونا وغيرُه من الأوبئةِ، ليست عقابًا من اللَّه، كما يزعُمُ البعضُ، ولكن يمكنُنا القولُ إنَّها آيةٌ من آياتِ اللَّه مثلَ كل الكوارثِ الطبيعيَّةِ، بل وكلُّ هذا الكونِ وكل مخلوقٍ من خلق اللَّه هو آيةٌ من آياتِه، يدعونا اللَّهُ للتدبرِ فيه لإعادةِ النظرِ في أفعالِنا وتصرفاتِنا، وفي علاقتِنا باللَّه عزَّ وجلَّ، وفي علاقتنا ببعضنا البعض كبشرٍ.

وبعيدًا عن نظريةِ المؤامرةِ والتَّكهُّناتِ فإنَّ الدَّرسَ الذي ينبغي أن نستخلِصَه مِن هذه الكارِثةِ هو مطالبةُ العالَـمِ أن يُعيدَ حساباتِه مِن جديدٍ بعدَ ما مضَت عقودٌ، بل قرونٌ، استُغِلَّتْ فيها ثرواتُ العالمِ، واستُنزِفتْ جهودُ علمائِه في تطويرِ الأسلحةِ الفتاكةِ التي تقتلُ وتدمرُ وتُخَرِّبُ، في حين أنَّه لو أُنفقَتْ هذه الثرواتُ الهائلةُ أو جزءٌ منها في البحثِ

(١) راجع: «تاريخ الطَّبريِّ» (٤/ ٦٠) و«البداية والنِّهاية» لابن كثير (١٠/ ٦٨).

العلميِّ الذي يخدِمُ الإنسانَ، وفي تحسينِ الأوضاعِ الصحيَّةِ للدولِ التي تعاني منَ المرضِ، لَمَا وصلْنا إلى هذا الوَضعِ المتردِّي الذي تَقِفُ فيه البشريةُ كلُّها عاجزةً أمام هذا الفيروسِ.

وأيًّا كان الأمرُ فَرِسالَتِي إلى إخوتي في الإنسانيَّةِ هي أنني:

أتحدَّثُ إليكم اليومَ داعيًا العالمَ بأنظمتِه وأفرادِه ومؤسساتِه إلى التَّضامنِ من أجل وَقْفِ الحروبِ والنزاعاتِ، والفَصْلِ في مواطنِ الخلافِ بطُرُقٍ إنسانيَّةٍ، لا عسكريَّة ولا اقتصاديَّة ولا قوميَّة، فهذه هي الخطوةُ الأولى التي تُساعِدُ البشريَّةَ في توجيهِ طاقتِها نحوَ ما هو أنفعُ للجميعِ، ونحوَ تحقيقِ التَّنميةِ الشَّاملةِ التي تَنشُدُها المجتمعاتُ كافةً، وتوجيهِ دَفَّةِ التَّطوراتِ التّكنولوجيَّةِ حالًا ومستقبلًا نحو إنشاءِ أنظمةٍ صِحِّيَّةٍ عالميَّةٍ، لديها القدرةُ على المواجهةِ الحقيقيَّةِ لمثل هذه الأوبئةِ التي هدَّدتِ البشريةَ أكثرَ من مرةٍ طيلةَ قُرونٍ مضَتْ، ولم يَنتبِهِ الإنسانُ لها إلا بعدَ دخولِه معها في صراعِ البقاءِ، كما أنَّ الطبيعةَ بكوارثِها قد تُحيطُ بنا بين عشيَّةٍ أو ضُحاها، فنرتدُّ إلى ما قبل العصرِ الحَجريِّ.

وعلى صنَّاعِ القرارِ أن يعملُوا -من الآنَ- على دَعمِ أنظِمَةٍ عِلميَّةٍ تأمينيَّةٍ تقي الإنسانَ كوارثَ الطبيعةِ المختلفةَ من زَلازِلَ وبراكينَ وأعاصيرَ وأوبئة.

أسألُ اللَّه تعالى أن يجعلَ يومَنا خيرًا من أَمسِنا، وأن يَجعلَ غدَنا خيرًا من يومِنا، وأن يُحسِنَ عاقِبتَنا في الأمورِ كلِّها، وأن يُجيرَنا من خِزيِ الدُّنيا وعذابِ الآخِرة، اللَّهم آمينَ.

والسلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه



مكانةُ الأخلاقِ في الإسلام

بسم اللَّه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

المشاهدون الكرام!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته وبعد..

فحلقةُ اليوم والحلقاتُ القادمة تدور -إن شاءَ اللَّه تعالى!- على التَّذكيرِ ببعضِ القِيم الخلُقيَّة والفضائلِ الإنسانيَّةِ التي غابت عن مجمعاتِنا في العقودِ الماضية، وكان غيابُها مِن أهمِّ بواعِثِ الشَّكوَى مِن تغيُّراتٍ متسارعةٍ فَقَدنا فيها الكثيرَ من خصائِصِنا كأُمَّةٍ إسلاميَّةٍ وعربيَّةٍ، عُرِفت بالكَرم والمروءة والسماحة.

ونريد أن نقدِّم لهذه الحَلقاتِ بكَلِمةٍ موجَزةٍ نتبيَّن منها موقعَ الأخلاقِ من الدِّين فنقولُ: إن الإسلامَ بكلِّ ما اشتملَ عليه من عقيدةٍ وعبادةٍ وأحكامٍ فقهيَّةٍ مرتبطٌ بالأخلاقِ ارتباطًا وثيقًا، لا نحتاجُ في بيانِه إلا أن نتأمَّلَ قليلًا بعضَ آياتِ القرآنِ

الكريم وبعضَ أحاديثِ النبي ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] والتَّقوى هي معنى جامع لمكارم الأخلاق، وكذلك قوله تعالى في الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التَّوبة: ١٠٣] والتَّطهيرُ هو التَّخلي عن الرذائل، والتَّزكية هي التَّحلي بالفضائل.

وكذلك الحديثُ الشَّريفُ «**مَن حَجَّ للَّهِ فلم يَرفُث ولم يَفسُق، رَجَعَ كيومِ وَلَدَتهُ أُمُّهُ**»[1] هذه إشاراتٌ سريعةٌ يتَّضِحُ منها أنَّ السُّموَّ الخُلُقيَّ مقصِدٌ واضِحٌ بل شديد الوضوح، وغرضٌ أساسٌ من إقامةِ أركانِ الإسلامِ والتي هي الصلاة والصيام والزكاة والحج، وأنَّ العباداتِ في الإسلامِ ومكارمَ الأخلاقِ الإنسانيَّةِ وجهانِ لعملةٍ واحدةٍ لا يمكن فَصلُ أحدِهما عن الآخر، بل إن الحديث الشريف ليذهب بنا خطوة أبعد في الكشف عن أهمية البُعدِ الأخلاقي وتغلغله في بناء الإسلام: عبادة وشريعة وسلوكًا، وذلك في

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (١٥٢١) ومسلم في «صحيحه» (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله ﷺ: «**إنَّما بُعِثتُ لِأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ**»[١] انظر إلى هذا النَّصِّ النبويِّ الصَّريحِ الذي جعَل من مكارمِ الأخلاقِ هدفًا وغايةً قصوَى من بَعثتِه ﷺ للدُّنيا بأسرِها. وكيف أنَّ رسالتَه تتعانَق مع الأخلاق وجودًا وعدمًا، فإذا أثمَرت العبادةُ في صاحبِها مكارمَ الأخلاقِ؛ كان ذلك دليلًا على أنَّه أدَّى عبادتَه على الوجه الأكملِ، ومؤشرًا على قبولِها مِنَ اللَّهِ تعالى، أمَّا إذا بقي المتعبِّدُ على حالٍ سيئةٍ مع النَّاسِ ومع المجتَمعِ فهذا أكبر دليلٍ على أنَّ عبادتَه ضُرِبَ بها عُرْضُ الحائِطِ؛ لذا رُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن لم تَنهَهُ صَلاتُهُ عن الفحشاءِ والمنكَرِ لم يَزدَد من اللَّهِ إلَّا بُعدًا**»[٢].

ونستطيعُ أن نذهبَ إلى أبعدَ من ذلك في تعليلِ العلاقة العضوية التي تستعصي على الانفصامِ بين الإسلام

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٩٥٢) والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إنَّما بُعِثتُ لِأُتَمِّمَ صالحَ الأَخلاقِ». أمَّا اللَّفظ المذكور فقد أخرجه البيهقيُّ في «السُّنن الكبرى»: ١٠/ ١٩١.

(٢) أخرجه الطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١١٠٢٥) من حديث عبد اللَّه ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

والأخلاق؛ حين نكتشف أن العبادات من صلاة وقيام وصوم وحج إذا لم تستند إلى ظهير خُلقيٍّ لا تُفيد صاحبَها يومَ القيامةِ بل تتركُه على أبوابِ جهنَّم. . انظر إلى المرأة التي كانت تصوم النهار وتقوم الليل وكانت تؤذي جيرانها بلسانها، كيف أنَّ كثرةَ صيامِها وقيامِها لم تنفعها بشيءٍ في الآخرةِ، بل ذهبَتْ بكلِّ ذلكَ إلى النَّارِ، وذلك في مقابل المرأةِ التي كانت تقتصِر في عبادتِها على صيام رمضان فقط، وعلى الصلوات الخمس المكتوبة لكنها كانت تحفظ لسانها وتتصدق ببقايا طعامها، كيف نفعها حسن الخلق وأدخلها الجنة. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رجل: يا رسولَ اللَّه، إنَّ فلانةَ يُذكَرُ من كثرةِ صَلاتِها وصِيامِها وصَدَقاتِها، غيرَ أنَّها تُؤذِي جيرانَها بِلِسانِها. قال ﷺ: «**هي في النَّارِ**». قال يا رسولَ اللَّهِ، إنَّ فلانةَ يُذكَرُ من قِلَّةِ صِيامِها وصَلاتِها وصَدَقاتِها، وأنَّها تتصدَّقُ من بَقايا الطَّعامِ، وهي لا تُؤذِي جيرانَها بِلِسانِها. قال ﷺ: «**هي في الجنَّةِ**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٦٧٥) والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (١١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقد صحَّحه ابن حبَّان (٥٧٦٤) والحاكم: ٤/ ١٦٦.

والخُلق الحسن يسبق العبادة في صحبة النبي ﷺ في الجنة والاقتراب من مجلسه ومقامه الشريف، يقول ﷺ: «**إنَّ أحَبَّكُم إليَّ وأقرَبَكُم منِّي مَجلِسًا يومَ القيامةِ أَحاسِنُكُم أخلاقًا، المُوَطَّئُونَ أَكنافًا، الَّذين يَألَفُونَ ويُؤلَفُونَ**»[1].

وهذا الحديث نص قاطع في أن صاحب الخلق الحسن، الذي يحب الناس ويحبه الناس لتواضعه وأدبه يسبق غيره.

الإخوة المشاهدون!

هذه الحلقة من حلقات الشهر الكريم ليست من باب الوعظ أو الدعوة العامة إلى الأخلاق الحسنة فحسب؛ فقد قيل ويقال الكثير والكثير في هذا الشأنِ ولكن تبلُغ هذه الحلقةُ هدفَها إذا استطاعَت رغم قِصَرِ وقتِها أن تكشِفَ للمُسلمِ عن هذا التَّلازمِ العَجيبِ بين الإسلامِ وبين الخُلقِ الحسَنِ حتى في بابِ العباداتِ التي يُقصَدُ منها وجهُ اللَّهِ وحدَه مما يستلزِمُ اليقظَةَ والتَّنبُّهَ لهذا المعنى الذي يغفُل عنه

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في «جامعه» (٢٠١٨) دون قوله: «المُوَطَّئُونَ أكنافًا...»، والطَّبرانيُّ في «مكارم الأخلاق» (٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

الكثيرونَ، ويكتفون بمجرد أداء الصلاة والقيام وصوم رجب وشعبان وتكرار العمرة والحج، ولا يبالون بعد ذلك بمظالم العباد وأكل حقوقهم أو إيذائهم وإساءة معاملتهم.



الاحتكارُ والمُبالَغة في الأسعار

وقتَ انتشارِ الوَباء

إنَّ الشريعةَ الإسلاميَّةَ يسَّرتْ للناسِ سُبُلَ التَّعامُلِ، كي تَظَلَّ أجواءُ المحبَّةِ سائدةً بين الأفرادِ، ولكي تَبْقَى الحياةُ سعيدةً نَقِيَّةً، لا يُعكِّرُ صَفْوَها كدرٌ ولا ضَغِينةٌ.

من أجلِ ذلك حَرَّمَ الإسلامُ الاحتكارَ؛ لما فيه من تَضييقٍ على عِبادِ اللَّهِ، ولما يُسبِّبُه من ظُلمٍ وعَنَتٍ وغَلاءٍ وبلاءٍ، ولما فيه من إهدارٍ لحريَّةِ التِّجارةِ والصِّناعةِ، وسدٍّ لمنافذِ العملِ وأبوابِ الرزقِ أمامَ الآخَرين.

وإذا تَساءَلَ المُشاهِدُ عن المقصودِ بالاحتكارِ والعِلَّةِ في حُرمتِه فالجوابُ:

أنَّ الاحتكارَ هو الامتناعُ عن بيعِ سلعةٍ أو منفعةٍ والانتظارُ حتى يَرتَفِعَ سعرُها ارتفاعًا غيرَ مُعتاد، مع شِدَّةِ حاجةِ الناسِ أو الدولةِ إليها، وهو مُحرَّمٌ شَرْعًا؛ لأنَّه نَوْعٌ من أكلِ أموالِ الناسِ

بالباطلِ؛ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾، وقوله ﷺ: «**لا يحتكِرُ إلَّا خاطئٌ**» رواه مسلم(١).

كما أنَّ الاحتكارَ مُخِلٌّ بمُقتضياتِ الإيمانِ باللَّهِ؛ لقولِه ﷺ: «**من احتَكَرَ طعامًا أربعينَ ليلةً فقد بَرِئَ من اللَّهِ وبَرِئَ اللَّهُ منهُ، وأيُّما أهلِ عَرْصةٍ باتَ فيهم امرئٌ جائعٌ فقد بَرِئَتْ منهم ذِمَّةُ اللَّهِ**»(٢).

وإذا كانت العِلَّةُ في حُرمةِ الاحتكارِ هي الإضرار بالنَّاسِ، فكلُّ ما يَترتَّبُ على احتكارِه فهو مُحرَّمٌ، سواءٌ كان الاحتكارُ لطعامٍ أو غيرِه؛ فإنَّ حاجةَ الناسِ لا تتعلَّقُ بالطَّعامِ فقط، فقد تَشتَدُّ حاجَتُهم إلى كِساءٍ ودَواءٍ ومَأْوى ونحوِ ذلك، واحتكارُ ما يحتاجونَ إليه من هذه الأشياءِ يُضَيِّقُ عليهم حياتَهم ويُوقِعُهم في حَرَجٍ.

---

(١) في «صحيحه» (١٦٠٥) من حديث مَعمَر بن عبد اللَّه بن نَضلة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٨٨٠) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما، والعرصة هي: كل موضع واسع لا بناء فيه، كما في «النهاية» لابن الأثير: ٣/ ٢٠٨.

والاحتكارُ في وقت الشِّدَّةِ وفي زَمَنِ انتشارِ الأوبئةِ -كأيَّامِنا هذه- أشدُّ حُرمةً منه في الظُّروفِ العاديَّةِ؛ لأنَّه في الظُّروفِ الاستثنائيَّةِ يكونُ من بابِ تشديدِ الخِناقِ ومُضاعَفةِ الكَرْبِ على الناسِ، واحتكارُ الأقواتِ والمستلزماتِ الطبيَّةِ وكلِّ ما تَمسُّ الحاجةُ إليه الآنَ أشدُّ تحريمًا من احتكارِها في أوقاتِ الرَّخاءِ والأمنِ.

وعلى الجانِبِ الآخَرِ نجِدُ أنَّ الإسلامَ قد أعطى للدولةِ الحقَّ في التَّدخُّلِ المباشرِ لمواجهةِ أزمةِ الاحتكارِ المُضرَّةِ بالمجتمعِ، ولإجبارِ التُّجَّارِ على البَيْعِ بثَمَنِ المِثْلِ؛ لأنَّ مَصلَحَةَ الناسِ لا تَتِمُّ إلا بذلكَ.

وأودُّ أن أُشيرَ إلى أنَّ الإسلام إذا كانَ قد جَرَّمَ الاحتكارَ وحرَّمَه فإنَّه في المقابلِ دعا إلى الترشيدِ والاقتصادِ والاعتدالِ في الاستهلاكِ؛ تحقيقًا للتَّعاونِ بين الناسِ؛ وعليه فإنَّ فَزَعَ المُستهلِكين وهلَعَهم في تكديسِ الموادِّ الغذائيَّةِ، وطلبِ ما لا حاجةَ لهم إليه من السِّلَعِ، من أكبرِ عَواملِ الاحتكارِ وتشجيعِ المُحتكِرين على رَفْعِ الأسعارِ؛ ممَّا يُعرِّضُ البسطاءَ للظُّلمِ والحِرمانِ من هذه السِّلع.

وهنا، وفي هذه الظروفِ القاسيةِ، يجبُ علينا جمَيعًا وُجوبًا شرعيًّا إحياءُ مَسلَكِ الاعتدالِ، وعدمُ الإسرافِ، وترشيدُ استهلاكِ السِّلَعِ، وهو في حال الأزماتِ أَوْلَى وأَوجَبُ، وعلينا أن نَتذكَّرَ ما قالَهُ إبراهيم ابن الأدهم عندما اشتكى النَّاسُ غلاءَ ثمنِ اللحمِ قال: أَرخِصُوه. أي: لا تشتروه[١]. . فالتَّرْكُ كفيلٌ بأنْ يَجعَلَ من الذهبِ سِلعةً رَخيصةً.

ومن أنواعِ الاحتكارِ المنهيِّ عنه أن يقتصرَ بيعُ سلعةٍ أو سلعٍ مُعيَّنةٍ على تجارٍ بعينِهم دُونَ تجارٍ آخَرين، فهذا الأسلوبُ الملتوي يَدفعُ دفعًا إلى احتكارِ هذه السِّلَعِ، ورفعِ أسعارِها، وقَصْرِ شِرائها على القادِرين فقط. . وفي هذه الحالةِ يُعطِي الشرعُ للدولةِ الحقَّ كاملًا في أن تَتَدخَّلَ تَدَخُّلًا مُباشِرًا لتحديدِ الأسعارِ؛ حمايةً لحقوقِ العامَّةِ من المُستَهلِكين.

والاحتكارُ بكلِّ أنواعِه مُحرَّمٌ في شريعةِ الإسلامِ من غيرِ فَرْقٍ بين أن يَقَعَ الاحتكارُ في قُوتِ الآدميِّ أو قُوتِ

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء»: ٨/ ٣٢.

الدَّوابِّ، والعِلَّةُ في ذلك هو إلحاقُ الضررِ بالآخَرين، وهدمُ أصلٍ من أصولِ الأخلاقِ، ومصادرةُ حُقوقِ الناسِ.

وأقسى ما سمعناه في هذه الأيامِ القاسيةِ هو محاولةُ بعضِ الدولِ الثريَّةِ احتكارَ علاجِ كورونا، وإغراءُ البلدانِ المرشَّحةِ لإنتاجِه بالأموالِ الطائلةِ لشراءِ هذا الدواءِ ثم احتكارِه، بل سَمِعنا بعمليَّاتٍ أشبه بالقَرْصَنةِ الدوليَّةِ تُقترفُ من أجلِ مصادرةِ الموادِّ الطبيَّةِ واحتكارِها لقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ آخَرين.

اللَّهمَّ أَصلِحْ لنا دِينَنا الذي هو عِصمَةُ أمرِنا، وأَصْلِحْ لنا دُنيانا التي فيها مَعاشُنا، وأَصْلِحْ لنا آخِرَتَنا التي إليها مَعادُنا، واجعَلْ الحياةَ زيادةً لنا في كلِّ خير، واجعَلِ الموتَ راحةً لنا من كُلِّ شرٍّ[(١)].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (**٢٧٢٠**) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: كان رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهمَّ أَصلِح لي دِينِي الَّذي هو عِصمةُ أَمرِي...».

(٢) الحشر: ١٠.

البلاءُ والابتلاءُ

(١)

البلاءُ في الأصلِ هو الاختبارُ، ويكونُ بالشرِّ كما يكونُ بالخيرِ، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

والعبدُ يُختبرُ بالنعمةِ ليشكرَ فيثابُ على شُكْرِه، ويُبتلى بتَضييقِ الرِّزقِ عليه فيصبِرُ فيثابُ على صبرِه، ويجِبُ أن نعلَمَ أنَّ الشُّكرَ والصَّبرَ يتحقَّقانِ بالحالِ لا بالمقالِ، أي: يكونُ حالُه وتصرُّفُه دالًّا على الشُّكرِ والصَّبرِ. . وشكرُ النعمةِ يكونُ ببذلِها للمحتاجِ، والصبرُ على الفقرِ يكونُ

بالتَّسليمِ لله تعالى فيما قَضاه وقدَّرَه على العَبدِ من فَقرٍ أو مَرضٍ أو غيرهما من أنواع الابتلاء.

وقدِ اختلفَ العلماءُ في الشاكرِ على النعماءِ، والصابرِ على الضراءِ: أيُّهما أكثرُ ثوابًا؟ فمنهم مَن قالَ: الشاكرُ على النعمةِ؛ لأنَّه يقاوِمُ إغراءَها ودعوتَها للبخلِ والجشعِ، ومنهم مَن قالَ: الصابرُ على الضراء أكثرُ ثوابًا لمعاناتِه وحرمانِه.. وقد قالَ عبدُ الرَّحمن بن عَوف ﵁: «**ابتُلِينا مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ بالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنا، ثمَّ ابتُلِينا بالسَّرَّاءِ بعده فلم نَصبِر**»[1]. وذلك أنَّ شكرَ النَّعماءِ لا يتحقَّقُ إلَّا بالإنفاقِ منها، وهو أمرٌ صعبٌ على النُّفوسِ، ولا يُطيقُه إلَّا هؤلاءِ الصَّفوةُ الذين يَضعونَ المالَ في أيدِيهم، ويَنزِعونَ مِن قُلوبِهم حُبَّه وشهوتَه وسطوتَه.

وإذن قد يكونُ الابتلاءُ بالمصائبِ من أجلِ أن يتعرَّضَ العبدُ لثوابِ الصبرِ، وهو ثوابٌ عظيمٌ -كما سنعرف-.

وإذن فلا تَلازُمَ أبدًا بين البلاءِ وبين حالِ العبدِ: طاعةً أو عِصيانًا، استقامةً على منهجِ اللَّه تعالى أوِ انحرافًا عنه، كيف والأنبياءُ الذين هم صفوةُ الخلقِ أشدُّ الناسِ بلاءً؟

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في «جامعه» (٢٤٦٤) وقال: «حديثٌ حَسَنٌ».

ونحن إذا طبَّقْنا «البلاءَ» بهذا المفهومِ على حالةِ «كورونا» فمِنَ الصَّعبِ القطعُ بالقَولِ بأنَّه تعريضٌ للعبادِ للصبرِ، فهذا المفهومُ يَظهرُ أوضحَ ما يَظهرُ في ابتلاءِ مَن يحبُّهم اللَّهُ من عبادِه، والأوفقُ أن نُفسِّرَ وباءَ كورونا بأنَّه عقوبةٌ أو «رسالةٌ» تحذيرٍ من السماءِ، أو لِنقُل: إنَّه نذيرٌ لعالمنا المعاصِرِ الذي ضلَّ الطريقَ، وانحرفَ عن سواءِ السَّبيلِ، ومصيبةٌ أصابَتْنا بما كسبَتْ أيدِينا.

ولَسنا بحاجةٍ إلى الكَشفِ عنِ انحرافاتِ العالَمِ المعاصِرِ: عِلمًا وسياسةً وإعلامًا وفنًّا وأخلاقًا وسلوكًا.

ومَن يَرْتَبْ في هذا الكلامِ عليه أن ينظُرَ إلى الأزماتِ الاقتصاديَّةِ وما نتجَ عنها من فقرٍ ومجاعةٍ وبِطالةٍ واستغلالٍ، وفروقٍ فلكيَّةٍ بينَ الفُقراءِ والأغنياءِ، وتَطويقٍ للدُّولِ الفَقيرةِ بالدُّيونِ، وعَبثٍ بالبيئةِ، وإذكاءٍ لنيرانِ الحروبِ مِن أجلِ تشغيلِ مصانعِ السلاحِ، واصطناعٍ للفِتَنِ بين المتدينينَ والعلمانيِّينَ، لاستنزافِ طاقاتِ الشَّباب وإلهائِهم وشَغْلِهم عن كُلِّ ما ينفعُ بلادَهم وشعوبَهم.

وأخطرُ هذه الانحرافاتِ: المجاهرةُ بالرَّذائلِ والمحرَّماتِ، وإلباسُها ثوبَ المشروعيَّةِ القانونيَّةِ

والاجتماعيَّةِ، وحَملُ النَّاسِ على نَزعِ بُرْقُعِ الحياءِ الفِطريِّ من على وجهِ الرجلِ والمرأةِ.

لقد أصبحَ مِنَ المعتادِ الآنَ -في هذا العالَمِ المعاصِرِ- أن يُقدِّمَ لك رَجلٌ من رِجالاتِ المجتمَعِ المرموقينَ صديقَه على أنه زوجتُه[(١)]، أو يُعلنَ زواجَه من عشيقتِه التي أنجبَ منها

(١) حسب الورقة البحثية التي صدرت عن منظمة Gallup «المعهد الأمريكي للأبحاث والإحصائيات» سنة ٢٠١٧ فإن ١٠,٢٪ من مجتمع الشواذ «LGBT» بالولايات المتحدة الأمريكية هم مرتبطون بعَقدٍ مَدَنِيٍّ من أشخاص من نَفْس جِنسهم، وهي إحصاءات صدرت عامين فقط بعد قرار المحكمة العليا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠١٥ القاضي بالترخيص لـ «زواج» الشواذ من نَفْس الجنس. راجع تقرير منظمة Gallup) (JONES, 2017).

بينما نجد في أوروبا أكثر من نصف دول الاتحاد الأوروبي تسمح بـ «زواج» الشواذ، منها جل دول غرب أوروبا؛ حيث إن هولندا وبلجيكا وإسبانيا والبرتغال والمملكة المتحدة وألمانيا أصدرت قوانين سنوات: ٢٠٠١ و ٢٠٠٣ و ٢٠٠٥ و٢٠١٠ و٢٠١٣ و٢٠١٧م على التوالي، تسمح بهذه الصِّيغة المنافية للفطرة من العلاقات. في حين نجد أن برلمانات إيطاليا ودول أخرى كسويسرا واليونان وكرواتيا سمحت في سنة: ٢٠١٦م لما يسمَّى بـ«التَّجمُّعات المدَنِيَّة» للشَّواذِّ «Civil Unions» «بوصفها صِيغة مَدَنِيَّة قانونية للعلاقات الجنسية بين الشواذ». =

أطفالًا كبارًا في ظِلِّ علاقةٍ آثمةٍ[١] . . وإنِّي لأسألُ نفسي : ألم

= وتبقى دول شرق القارة الأوروبية أكثر الدول التي لا تتساهل مع قضية «زواج» الشَّواذ ودعمهم لإقامة علاقات مع نفس الجنس، فنجد نِسَب المعارِضين لزواج الشواذِّ في رومانيا وسلوفاكيا تتجاوز ٦٩٪، وتصل هذه النسبة إلى ٦٧٪ من المواطنين الذين يعارضون مثل هذه العلاقات، ونجد هولندا تتصدر دول الإتحاد الأوروبي من حيث دعم العلاقات بين الشواذ بنسبة تصل إلى ٩١٪ والسويد بـ ٩٠٪ وإسبانيا بـ ٨٤٪. راجع: «أنفوغرافيك للبرلمان الأوروبي» The Gardian, New Yorker, European Commission, January 2017.

https://www.cfr.org/backgrounder/same-sex-marriage-global-comparisons

(١) حسب تقرير لـ Eurostat (المكتب الإحصائي بالاتحاد الأوروبي) الذي صدر سنة ٢٠٢٠م، فإنَّ نِسبةَ حالات الوِلادة خارج إطار الزَّواج سنة ٢٠١٨ بَلَغت ٤٢٪ بفارق ١٧ نقطة مقارنة بسَنَة ٢٠٠٠م من مجموع المواليد في دول الاتحاد الأوروبي، والتي تتفاوت نسبها؛ ففي فرنسا مَثَلا، تجاوزَت هذه النِّسبة ٦٠٪ من مجموع الولادات، وفي بلغاريا وسلوفينيا بلغت ٥٨٪، بينما سجلت البرتغال والسويد أكثر من ٥٥٪، في حين أن اليونان وكرواتيا وبولندا تجاوزت ٧٠٪ ، أما في المملكة المتحدة وبلجيكا وإسبانيا فقاربت النسبة على ٥٠٪ . انظر:

https ://ec.europa.eu/eurostat/web/products-eurostat-news/-/DDN-200717-1

تكن مجاهرةُ عالَمِ اليومِ بهذه العِلَلِ والأمراضِ الخُلُقيَّةِ سببًا كافيًا -فيما سلَف مِن سُلوكِ الأُممِ والحضاراتِ- لتدميرِ قريةٍ كاملةٍ جعلَ اللَّهُ عالِيَها سافِلَها في زمن من الأزمانِ الغابرةِ؟! وما الفرقُ بين أن يُهلِكَ اللَّه الظالمين القدماءَ بحجارةٍ من سجيلٍ منضودٍ وبين أن يُهلِك الظالمين المعاصرين بفيروس كورونا غير المنظور؟!



البلاءُ والابتلاءُ

(٢)

الحمد للَّه، وصلى اللَّه وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

نتابعُ اليومَ ما بدأناه من حديثٍ في موضوعِ البَلاءِ، وقد قُلنا في الحَلقةِ السَّابقةِ إنَّ الثَّرِيَّ أو الغنيَّ مُطالَبٌ بالشُّكرِ.

ونقولُ اليوم: إنَّ شكرَ كلِّ نعمةٍ إنما يكون من جنسِها، وعليه فلا يَصِحُّ أن يكونَ الشُّكرُ على النِّعمةِ بالكَلامِ، كأن نكرِّرُ عبارة: «الحمد للَّه» أو «نشكرك يا رب» أو «الشكر للَّه»، وذلك أن الكلام ليس من جنس النعمة، فلا يكون شكرًا عليها حتى لو تكرَّر الشكر «الكلامي» مئات المرات.

أمَّا الشُّكرُ الحقيقيُّ الذي هو واجِبٌ في مجال النعمة، فهو أن يُخرِجَ الشاكر بعضًا مما يمتلك، سواء كان المملوك مالًا أو منفعة من المنافع، فمثلًا الأطباء الذين وفقهم اللَّه في

مهنتهم، وجنوا منها أرباحًا طائلة لا يكون الشُّكرُ في حقِّهم باللِّسان أو ببذل المالِ فحَسب، بل بتقديم الخدمة الطبية، والعلاج مجانًا للمرضى من الفقراء والمحتاجين.

ولو أنَّ كلَّ إنسانٍ أعطاهُ اللَّهُ نعمةً عاد على غيره بشيء، ولو يسيرًا، من هذه النعمة إذن لتحقق التكافل الاجتماعي، ولتحققت معه كل مقومات الأمن الاجتماعي والاقتصادي..

وها هنا نقطة قد تخفى على كثيرين، وهي الاعتقاد بأن «البلاء» إنما يكون بالمصائب والشدائد كالفقر وضيق الرزق أو المرض أو فَقْدِ عزيز وغير ذلك، وأن النعمة والتنعم وسعة الرزق وبحبوحة العيش ليست ابتلاءً من اللَّه للعبد، والحقيقة غير ذلك. فالنعمة والبؤس، والصحة والمرض، وكل من هذه الثنائيات هو ابتلاء من اللَّه للعباد.. استمع لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر: ١٥]، ثم استمع للآية التي تليها: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٦]، لنعلم أن اللَّه تعالى كما يَبْتلي بالفقر كذلك يَبْتلي بالغِنَى سواء بسواء، وأن الإنسان معرَّض للابتلاء بأي

منهما . . ويؤيد ذلك قوله ﷺ : «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤمنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1]، وهنا ينشأ سؤال عن استحقاق الغنيِّ الشاكر للثواب مثل الفقير الصابر، فقد نعلم أن الثواب مرتبط بالمشقة، أو هو على قدر المشقة، كما يُقال، وأن من المنطقي ومن المعقول أن يعوِّض اللَّه هذا الفقير الصابر بنعيم يوم القيامة يُنسيه ما مرَّ من بؤس وفقر في حياته الدنيا، فكيف يمكن فَهْمُ ذلك في مثال الغنيِّ الشاكر؟ وأين هذه المشقة التي يعانيها هذا الغنيَّ، وهو يتقلب في كثرة المال وسعة الرزق وبحبوحة العيش؟! حتى يعوَّض بالثواب يوم القيامة!!

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نودُّ أن نلفت الأنظار إلى خطأ «شائع» في تفسير معنى «الشكر» وحصره في مفهوم واحد، هو: ترديد ألفاظ الحمد والشكر والثناء على اللَّه باللسان، وليس أمرًا آخر وراء ذلك، وهذا التفسير وإن كان صحيحًا في حالة: الفقير الصابر، إذ ليس في مقدوره إلا

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

الشكر باللسان، غير أن الأمر ليس كذلك في حالة الغنيِّ الشاكر.. لأن شكر هذا الغنيِّ لا تغني فيه ألفاظ الحمد والثناء على اللَّه تعالى، وإنما يغني فيه الشكر الذي هو من جنس ما أنعم اللَّه به عليه، ومعنى ذلك أن شكر الغني هو: بذل المال وإنفاقه على المحتاجين والفقراء من ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وغيرهم ممن ذكرهم القرآن الكريم، وذكَّر بهم في مواضع كثيرة، فضلًا عن أحاديث نبوية يصعب حصرها في هذا المقام..

وإذا أخذنا في الاعتبار أن الإنسان -غنيًّا أو فقيرًا- فطره اللَّه تعالى على محبَّة المال، وإمساكه والضَّنِّ به على الغير وعلى النفس أيضًا، أدركنا أن شكر الغَنِيِّ فيه «معاناة» من نوع آخر غير معاناة الفقير، إنها معاناة التغلب على النوازع النفسية، والسَّبْح ضد رغبات النفس وشهواتها، وما جُبلت عليه من إمساك وتقتير وشح.. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر في أكثر من موضع فقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، أي: خُلِقَت النفوس على الشح، والشحُّ هو: شدَّة البخل، ومعنى «أُحْضِرَتْ»: خُلِق فيها هذا الطبع: خلقه اللَّه تعالى ورَكَزَه في فطرتها.. وهنا يتبيَّن

بوضوح أن بَذْل الغَنِي ماله لغيره وإنفاقه فيما لا يعود عليه بمنفعة ناجزة وحاضرة فيه معاناة وصبرٌ ومشقَّةٌ قد تفوق مشقَّة الفقير وصَبْرَه على فقره.. يدلُّنا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، وواضح أن مدار «الفلاح» في الآيتين الكريمتين إنما هو على فعالية النفس والانتصار عليها، وفي ذلك من المشقة ما فيه، بل نقول: إن معاناة الشكر العملي لدى الغنيِّ الشاكر هي نفسها معاناة الصبر عند الفقير الصابر، بل نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول: إن معاناة الفقير الصابر قد تكون أهون من معاناة الغنيِّ الشاكر، وليست هذه مبالغة متخيَّلة لتصوير مشقة الشكر عند الغنيِّ وإنما هو واقع عبَّر عنه الصحابيُّ الجليل عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه!- في قوله: «**ابتُلِينا مع رَسولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم!- بالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنا، ثمَّ ابتُلِينا بالسَّرَّاءِ بعده فلم نَصبِر**»[1]،

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٢٤٦٤)، وانظر في شرح الحديث تحفة الأحوذي ٧/ ١٦٥.

ومعنى الحديث فيما يقول الشُّرَّاح: «اخْتُبرنا بالفقر والشدَّة والعذاب فصبرنا عليه، فلما جاءتنا الدنيا والسعة والراحةُ بَطَرْنا» أي: كَفَرْنا النعمة ولم نشكرها.

فلا بد من الألم والتَّألم؛ لأنَّ التَّكاليفَ هي مناطُ الثَّواب، فلا ثوابَ بدونِ تكليفٍ إلا الذي يُفيضُه اللَّه سبحانه وتعالى كرمًا على الآخرين، لكن عادةً ارتبطَ الثَّوابُ بالتَّكاليفِ وأيضًا ارتبطَ العِقابُ بالخروج على التَّكاليف وهي المنهيات.

وقبل أن نختم هذه الحلقة نعرض لتساؤل مهم، وهو: هل هناك علاقة بين نوع الابتلاء وحال العبد من طاعة أو معصية؟ بمعنى أن الابتلاء بنوازل المصائب مؤشر أو دليل على أن هذا المُبتلى رجلٌ سيِّءٌ ورجلٌ غيرُ صالحٍ، وحقيقة الأمر أن هذا التساؤل غير صحيح، وأنه لا علاقة بين الابتلاء وبين حال العبد، وإلَّا فنحن نعلمُ أنَّ «أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ»[1]، وهذا واضحٌ في سيرتِهم وفي تواريخِهم، وأن عباد اللَّه

(١) جزء من حديث أخرجه التِّرمذيُّ في «جامعه» (٢٣٩٨) وابن ماجه في «سننه» (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث حسن صحيح».

مُبْتلَوْن، بل يكون «البلاء» على قدر القرب من اللَّه تعالى، فلو أنَّ البلاءَ بالمصائِبِ دليلٌ على أنَّ المبتلَى رجلٌ شريرٌ، أو رجلٌ فاسدٌ، أو فاسقٌ، أو مغضوبٌ عليه من اللَّه -سبحانه وتعالى- لكُنَّا نقول -والعياذ باللَّه- إن الأنبياء أحق بهذا الوصف، لأنهم أهل بلاء. مِمَّا يدلنا دلالة واضحة بأنه لا علاقة بين نزول البلاء وبين الشخص المبتلَى، وأنه كما يبتلى الطالح يبتلى الصالح أيضًا.

شكرًا لاستماعكم

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته



البلاءُ والابتلاءُ

(٣)

بسم اللَّه، الحمد للَّه، والصلاة والسلام على رسول اللَّه وعلى آله وصحبه وبعد. . .،

انتهينا في الحلقاتِ السَّابقةِ إلى توضيحِ معنى البلاءِ، وكيف أنَّه يصيبُ العبدَ سواءٌ كانَ هذا العبدُ صالحًا أو غيرَ صالحٍ، وأنَّ البلاءَ كما يكونُ بالشَّرِّ يكونُ بالخيرِ، وكما يكونُ بالضَّراءِ يكونُ بالسَّراءِ.

ثم نأتي للسُّؤالِ الذي تلقَّيناه تقريبًا قبلَ حلْقتين، وعنوانُه: ما علاقةُ البلاءِ بما يمرُّ به العالَمُ الآنَ مِن وباءِ كورونا، هل هو: عقابٌ؟ أو هو: ابتلاءٌ، وبناءً على ما قدَّمناه نستطيعُ القولَ بأنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى له أن يفعلَ مع عبادِه ما يَشاءُ. لكِن هناكَ شواهد تبعث على الاعتقاد بأنَّ ما يحدُثُ الآنَ هو رسالةُ تحذير أو إنذار من اللَّهِ -تعالى!-. . ولله -

سبحانه!- وكما هو معلوم، نُذُرٌ في عباده، يخوِّفهم بها ليرجعوا عمَّا هم فيه مِن ضلال وانحراف.

إن مَن يتتبَّعُ تاريخيًّا وضعَ الحضارةِ الغربيةِ سواء في الغرب أو في الدول التي تسير على سيرها - يُطالعه كمٌّ هائل من الانحرافات الخُلقية والإنسانية والأُسرية والاجتماعية، لا يمكن استقصاؤه في هذه الدقائق.

ولكن تكفينا في هذا السياق مؤلَّفاتٌ كثيرة جدًّا غربيةٌ، تُرجمتْ إلى اللغةِ العربيةِ، وكُتِبَتْ بأقلامٍ حكيمةٍ، نبَّهت إلى الخَطر الشَّديدِ الذي يتربَّص بالعالَمِ كلِّه من جراءِ انحرافِ هذه الحضارةِ العِلميَّةِ عن أصول الأخلاقِ الإنسانية، وأثبَت مؤلفوها أنَّ هذه الحضارةَ تنكَّرت لله سبحانه وتعالى، وللأديانِ، كما تنكَّرت للأخلاقِ، ولقيم الأسرة، وبخاصة في أيامنا هذه، بل تنكَّرت لكلِّ قيمةٍ بُنيَت على الفِطرةِ الإلهيَّةِ التي فَطرَ اللَّهُ النَّاسَ عليها.. وقد أصبح من المألوف -اليوم- أن نجد بعضَ الشَّخصيَّاتِ الغَربيَّةِ المرموقةِ سياسيًّا، والتي تمثِّل أنموذجًا يتطلَّع الجميعُ إلى محاكاته- يُقدِّم في احتفال عام صاحبتَه التي أنجَبَ منها

أولادًا كبارًا، على أنها مخطوبته التي سيتزوج بها بعد أن عاشَ معها فترةً طويلةً في علاقةٍ بالنسبة لنا -نحن أبناء الأديان أو المؤمنين- آثمة.

وقد يعيب عليَّ بعض السادة المشاهدين، ويقول: «خلِّيك في حالك وسيب الناس»، أو دع الحضارات الأخرى وشأنها، فهي حضارات رضي بها أهلها، وأن القرآن الكريم يُقرِّر: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وهذا صحيح، ولكن يجب أن نتنبَّه إلى أن هذه الانحرافات لو كانت قاصرة على بلاد المنشأ، ولا تسعى ليل نهار في فرضها على الأمم الأخرى، وبخاصة: الأمم الإسلامية، فإن مثل هذا الاعتراض تكون له وجاهته ومنطقيته.

ولو أنَّ الغربَ اكتفى بانحرافاتِه وأَغلق بابَه عليه ولم يُطالِبنا بالاقتداء به، لكان الحال أن نحمدَ اللَّه على أن عافانا وينتهي الأمر، ولكن نحن اليوم أمامَ غزوٍ متدفِّقٍ لنَشرِ هذه الثَّقافةِ، وقد تَحدَّثنا عنه كثيرًا في المؤتمراتِ الدَّوليَّةِ: مؤتمراتِ المساواة، ومؤتمرات المرأة، والمؤتمرات التي تهدف إلى إزالةِ كلِّ الفروقِ بين الرجلِ والمرأةِ، والتي تُطالِبُ بأنَّ

المرأةَ تتزوج امرأة، والرجل يتزوج رجلًا، وأَنْ تستبدل كلمة «مشاركة» أو «مؤاخاة» بكلمة «زواج» و«زوج وزوجة».

مشكلة الغرب معنا الآن أنه يريد أن يفرِضَ علينا ثقافةً تُدَمِّرُ ثقافتَنا، بحيث تغرقنا فيما غرق فيه، أو نقاومه لننجو ونَسْلم، وأنا هنا أتذكَّرُ الحديث الشَّريفَ في تصويره لما يحيط بنا من مخاطر الحضارات الإلحادية، وهو قولُه ﷺ: «**مَثَلُ القائمِ في حُدُودِ اللَّهِ والواقعِ فيها، كمَثَلِ قَومٍ استَهَمُوا على سفينةٍ، فصارَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفَلَهَا، فكان الَّذين في أسفَلِها إذا استَقَوا من الماءِ[1] مَرُّوا على مَن فَوقَهُم، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولم نُؤْذِ مَن فَوقَنا...**»[2].

والحديث يصور مغالطات هؤلاء الخارجين على قواعد الأخلاق الإنسانية، ومبرراتهم التي يقدمونها بين يدي إفسادهم وتخريبهم، وأنهم إنما يفعلون ذلك حتى يُجنِّبوا مَن فوقهم الأذى، ويوفروا على أنفسهم تعب الصعود والهبوط.

(١) كلما أرادوا أن يشربوا ذهبوا إلى الدَّور الأعلى ليُحضِروا الماء.

(٢) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٢٤٩٣) من حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما.

ثم يقول النبي ﷺ: «**فإنْ تَرَكُوهُم وما أَرادُوا**»، أي: إن ترك أصحاب السفينة هؤلاء القوم ينفذون خطتهم التي هي في ظاهرها خطة لتحقيق المنفعة العامة، فإن السفينة ستغرق بهم وبمن فوقهم، ولكن إذا تحرك العقلاء في هذه السفينة، وأخذوا على أيدي هؤلاء العابثين، ومنعوهم من أن يحدثوا هذا الحدث، فالنتيجة هي نجاة السفينة: مَن كان بأسفلها، ومَن كان بأعلاها..

علينا أن نقارن بين هذه الصورة، وبين سفينة العالم اليوم، لنستخلص الدروس والعِبَر من هذا الحديث النبوي الشريف، وبخاصةٍ تحذيره ﷺ لعقلاء العالم في قوله في آخر الحديث: «**فإنْ تَرَكُوهُم وما أَرادُوا هَلَكُوا جميعًا، وإن أَخَذُوا على أَيدِيهِم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا**»[1].



(١) تقدَّم تخريجه.

الصَّبرُ على البلاءِ

بيَّنَّا في الحلقةِ السَّابقةِ أن الابتلاءَ بالنسبةِ للمؤمنِ باللَّه تعالى خيرٌ كلُّه؛ لأنه يُعرِّضُه لثوابٍ عظيمٍ ينالُه جزاءَ ما قدَّمَ من شكرٍ أو صبرٍ، وبيَّنَّا أن الابتلاءَ بالمصائبِ كالفقرِ والمجاعةِ والأمراضِ وفَقْدِ الأحبَّةِ ليس أمارةً على سُوءِ حالِ المبتلَى، فصفوةُ البشريةِ هي التي يُصيبُها البلاءُ، كما بيَّنا أنَّ البلاءَ كثيرًا ما يكون طريقًا معبَّدًا إلى جنةِ الرضوانِ والنعيمِ المقيمِ. . بل إن العبدَ قد تكونُ له منزلةٌ في الجنةِ لا يَصِلُ إليها بعملِه الذي اعتادَ عليه لعلوِّ هذه المنزلةِ وسُموِّها عن درجةِ عملِه، فيُبتلَى من اللَّهِ، فيبلغُ هذه الدرجةَ بثوابِ الصبرِ على قضاءِ اللَّه، وقد مرَّ بنا قولُ النبيِّ ﷺ: «**عَجبًا لأمرِ المؤمنِ، إنَّ أمْرَه كلَّه له خيرٌ، وليسَ ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ؛ إن أصابَتْه سراءُ شَكرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضراءُ صبرَ فكان خيرًا له**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٩٩٩) من حديث صُهيب الرُّوميِّ رضي الله عنه.

وسببُ الخيرِ في عمومِ البلاءِ هو: التَّحقُّقُ بمقامِ الصبرِ أو مقامِ الشكرِ، وهما مَنزلانِ لا يَنزلُهما إلا مؤمنٌ باللَّه وباليومِ الآخرِ، وبالجزاءِ ثوابًا وعقابًا.

وقد وردَ ذِكرُ الصبرِ ومُشتقاته في القرآنِ الكريمِ أكثرَ من مئةِ مرةٍ، وهو يدورُ على «حبس النَّفسِ على ما تكرَه ابتغاءَ مرضاةِ اللَّه»، وقد أشارَ النبيُّ ﷺ إلى مناطِ الثوابِ في الصبرِ، وهو: الصبرُ على المكارِه، وذلك في الحديثِ الشريفِ: «**واعْلَمْ أنَّ في الصبرِ على ما تكرَه خيرًا كثيرًا**»(١).

وقد ربطَ القرآنُ الكريمُ، وكذلك السنةُ المشرفةُ، بين الصبرِ وبين أعظمِ الدرجاتِ في الدنيا وأجلِّها ثوابًا في الآخرةِ، فالصابرونَ هم أئمةُ المتقينَ، وينالون أجرَهم مرتيْنِ بما صبروا، واللَّهُ مع الصابرينَ، كما ربطَ القرآنُ بينَ الصَّبرِ والنَّصرِ، وجعَل الصَّبرَ الخيارَ الأنفعَ في النوازلِ والملماتِ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. . ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٨٠٣) من حديث عبد اللَّه بن عبَّاس رضي الله عنهما.

وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه وصفَ الصَّبرَ بأنَّه نصفُ الإيمانِ[١]. .

وعلينا أن نعلمَ أنَّ الصبرَ المقبولَ هو ما كانَ في وقتِه الصحيحِ: «إنَّما الصَّبرُ عند الصَّدمةِ الأُولَى»[٢]. فإذا فَتَرَ المبتلَى بتأثيرِ مرورِ الزَّمنِ أو مواساةِ الآخرينَ فإنه لا يُسمَّى صابرًا محتسبًا.

وقد بلغَت فضيلةُ الصبرِ هذه المنزلةَ لضرورتِها القُصوَى في تحقيقِ الآمالِ في الدنيا والآخرةِ. . فهو ضرورةٌ دينيَّةٌ وضرورةٌ دنيويةٌ سواءً بسواءٍ، وإذا كان اللَّهُ تعالى قد أجرَى العادةَ في الدنيا على نظامِ التَّدرُّجِ، درجةً بعدَ درجةٍ وخطوةً إثرَ أُخرَى، فلا جرمَ أن كان الصبرُ هو الوسيلةَ الوحيدةَ التي يتمكن بها العبد من تحقيق آماله وبلوغ غاياته. . فالزارعُ والصانعُ والتَّاجِرُ والعالمُ والمتعلِّمُ والمفكِّرُ وغيرُهم لا يُمكنُ لهم أن يُنجِزُوا عملًا أو يحقِّقوا غايةً أو هدفًا

(١) أخرجه ابن الأعرابيِّ في «معجمه» (٥٩٢) وابن شاهين في «التَّرغيب في فضائل الأعمال» (٢٧٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (١٢٨٣) ومسلم في «صحيحه» (٩٢٦) من حديث أَنَس بن مالك رضي الله عنه.

إلا باصطحابِ الصبرِ والانتظارِ لقَطعِ كُلِّ مرحلةٍ من المراحلِ التي تَسبِقُ مرحلةَ الإنجازِ . .

ويطولُ الكلامُ كثيرًا في ذِكرِ الحِكَمِ في الشعرِ والنثرِ التي تدعو لفضيلةِ الصبرِ، وأن الإنسانَ لا يبلُغُ مجدًا ولا نجاحًا إلَّا إذا اتخذَ الصبرَ مطيةً في السعيِ لبلوغِ المقاصِدِ وتحقيقِ الآمالِ.

ومن أبلغِ ما قيلَ في ذلك؛ قولُه ﷺ: «**حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِه، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ**»[1]. وقولُ المسيحِ عليه السلامُ: «**إنَّكم لا تُدرِكُون ما تحبُّونَ إلا بصبرِكم على ما تَكرهُون**»[2].

وما من زمنٍ نحن فيه أحوجُ إلى الصبرِ على ما نزلَ بنا مثلُ زمنِ هذا الوباءِ الذي يَجثُمُ على الصدورِ، ويخنُقُ الأنفاسَ، ويَقُضُّ المضاجعَ، ويَحدُّ من الحرياتِ العامةِ والخاصةِ . . وإنه لَبَلاءٌ عظيمٌ لا يعالجُه إلا الصبرُ والدعاءُ الدائمُ عَقِبَ الصلواتِ أن يَكشِفَ اللَّهُ عن عبادِه ما نَزَلَ بهم.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٨٢٢) من حديث أَنَس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن أبي الدُّنيا في «ذمِّ الدُّنيا» (٢٨٦) عن فُضيل بن عِياض، قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «إنَّكم لن تُدرِكُوا ما تُرِيدُون إلَّا بتَركِكُم ما تَشتَهُون، ولا تَنالُونَ ما تَأمَلُونَ إلَّا بصَبرِكُم على ما تكرَهُونَ . . .».

التَّوكُّل

(١)

بسم اللَّه والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسولِ اللَّهِ وعلى آلِه وصَحبِه ومَن اهتدى بهُداه.

تدورُ حلقةُ اليوم على موضوعِ التَّوكُّل، وهذا الموضوع مرتبِطٌ بالظُّروف التي يمُرُّ بها العالمُ الآن، وهي ظروفُ الوباءِ المعروفِ.

وعلاقةُ الموضوعِ بوباءِ كورونا أنَّ كثيرينَ من النَّاسِ يظُنُّونَ أنَّهم يتوكُّلونَ على اللَّهِ ولا يَلتزِمونَ بالتَّدابيرِ العِلميَّةِ والطِّبيَّةِ والإداريَّةِ التي تَفرِضُها الجِهاتُ المسؤولةُ عن حمايةِ النَّاس، وعن وقاية الشعبِ أو الشُّعوب من هذا المرضِ قبلَ أن يَستفحِلَ، أو للحَدِّ مِن سُرعةِ انتشارِ هذا المرضِ.

هل فِعلًا في الإسلام -كما في الأديانِ عامَّة- أنَّ مِن حقِّ الإنسانِ أن يُخالِفَ كلَّ هذه التَّدابيرِ وهذه الأوامِرِ، بحُجَّةِ أنَّه

يتوكَّل على اللَّهِ وأنَّ ما سيأتيه سيأتيه؟ أو أنَّ هذا التَّصرُّفَ يمثل خروجًا على رُوحِ الدِّين وعلى فقه الشريعة وأحكامها؟ وهل صحيح ما يفعله بعض الناس من الذهاب إلى المسجد، ويحتجون بأن التجمعات موجودة في أماكن كثيرة، فلماذا لا يذهبون هم إلى صلاةِ الجماعةِ أو إلى الجُمعِ أو صلاةِ التَّراويح كما نسمعُ الآن؟!

إنَّ الإجابةَ على هذا التساؤلِ، وأمثالِه، تقتضينا -أوَّلًا- أن نعرِفَ معنَى «التَّوكُّلِ» في الإسلامِ. . فماذا يعني التَّوكُّل في شريعةِ هذا الدِّينِ القَيِّمِ؟

وقبلَ الإجابةِ على هذا السؤالِ المحوريِّ في موضوعِ «التَّوكُّلِ» على اللَّهِ تعالى، أوَدُّ أن ألفِتَ الأنظارَ إلى أنَّ كثيرًا مِنَ العلماءِ نبَّهُوا إلى «خطأٍ» شديدٍ يقعُ فيه بعضُ عوامِّ المسلمينَ، وذلك حين يفهمون «التَّوكُّلَ» على أنَّه تفويضُ الأمرِ إلى اللَّهِ تعالى وإرادتِه وقدرتِه وتدبيرِه، ولا يقيمون وزنًا للأسبابِ التي أمَرَ اللَّهُ باتخاذِها في التَّوكُّلِ عليه جنبًا إلى جنبٍ، بل يَعْتدي البعضُ على هذا الأمرِ الإلهيِّ ويتركُ الأسبابَ انتظارًا لقضاءِ اللَّهِ وقَدَرِه. . وفي الحقيقةِ هذا

الصِّنفُ مِنَ المسلمينَ قليلٌ جِدًّا، وأغلَبُ الظَّنِّ أنَّهم إنَّما يتركون الأسبابَ كسَلًا وتقاعُسًا ومَيلًا إلى الرَّاحَةِ والخمولِ، ويقدِّمُون مثلَ هذه الأعذارِ تبريرًا لهذا الكسل..

وقد دفع هذا السلوك أعداء الإسلام لاتهامه بأنه السببُ في ما حَلَّ بالمسلمينَ مِنَ الضَّعفِ والهوانِ والفَقرِ والجهلِ..

وهذا الاتِّهامُ هو مِن جملةِ أكاذيبِ بعضِ المستشرِقِينَ والمبَشِّرينَ الذين ربطُوا بينَ نَجاحِهم في مهماتِهم الاستعماريَّةِ وبينَ زعزعَةِ ثقةِ المسلمينَ في دينِهم وقُرآنِهم وسُنَّةِ نبيِّهم ﷺ، ولسنا بصَدَدِ تفنيدِ هذه الأكاذيبِ والأباطيلِ، ويكفي أن نقولَ: إنَّ مَن يُلقِي نظرةً منصفةً على تاريخِ المسلمينَ يُدرِكُ على الفَورِ أنَّ ما حَلَّ بالمسلمينَ من ضَعفٍ إنَّما كان نتيجةَ ابتعادِهم عن تعاليمِ دينِهم، وأنَّ حضارَةَ المسلمينَ العلميَّةَ والأخلاقيَّةَ -التي امتدت مِن إسبانيا إلى الصين في وقتٍ قصيرٍ- إنَّما تحقَّقَت حين كان المسلمونَ يتوكَّلُون على اللَّهِ وحدَه ويفعلونَ ما أُمِرُوا به مِن اتخاذِ أسبابِ القُوَّةِ الماديَّةِ والرُّوحيَّةِ.. وكيف يُتَّهَمُ الإسلامُ بأنَّه دِينُ الكَسَلِ والتَّحريضِ على تَركِ «الأسبابِ»

والقرآنُ يأمُرُ المسلمِينَ أمرًا صريحًا باتخاذِ الحَيطَةِ والحَذَرِ والأسبابِ؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١].

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

ونعودُ إلى سؤالٍ: «ما هو التوكُّلُ في الإسلامِ؟» والإجابةُ هي: أنَّ حقيقةَ «التَّوكُّلِ» على اللَّهِ -في الإسلامِ- تتركَّبُ مِن أمرَينِ لا بُدَّ مِنهما:

الأمرُ الأوَّلُ: اتِّخاذُ الأسبابِ التي أمَر بها الشَّرعُ.

الأمرُ الثاني: الاعتقادُ بأنَّ الأسبابَ لا تعمَلُ عَمَلَها إلَّا بإرادةِ اللَّهِ تعالى وأمرِه إيَّاها أن تَعمَلَ أو لا تعمَل، وهذا هو معنَى تفويضِ الأمرِ للهِ تعالى.

وإذن فالتَّوكُّلُ الشَّرعيُّ الحقيقيُّ هو مجموعُ الأمرَيْنِ: اتخِّاذ الأسبابِ وتفويضُ الأمرِ إلى اللَّهِ تعالى، والمسلِمُ المتوكِّلُ على اللَّهِ حَقَّ التَّوكُّلِ هو الذي يتخِذُ كُلَّ الأسبابِ

الممكِنةِ ثم يُفَوِّضُ أمرَه إلى ربِّه، ومعنَى التَّفويضِ: أن يعلَمَ عِلمَ اليقِين أنَّ «الأسبابَ» رغمَ وجوبِ اتخاذِها فإنَّ ما يترتَّبُ على اتخاذِها مِن نجاحٍ أو فشلٍ في النتائجِ المنتظرةِ مرهونٌ بإرادةِ اللَّهِ تعالى وحده، وليس لها دخلٌ في تحقيقِ النتائجِ أو فشلِها، وقد نعودُ إلى هذه النقطةِ بمزيدٍ مِنَ التَّدقيقِ العلميِّ في حلقةٍ قادمةٍ إن شاءَ اللَّهُ.

الأمرُ بالتَّوكُّلِ:

والتوكُّلُ بالمعنَى الذي تقدَّم ليس متروكًا لاختيارِ «المسلِمِ» وحريَّتِه في أن يلتزِمَ به، أو يُلقِيه جانبًا ثم يعتمِدُ في طلَبِ حاجاتِه على اجتهادِه فقط، أو يعتمِدُ على اللَّهِ دُونَ الأخذِ بالأسبابِ، ويزعُمُ أنَّ كُلَّ شيءٍ بقضاءٍ وقَدَرٍ، فلا معنَى لاتخاذِ الأسبابِ ولا داعِيَ لها. نقولُ: إنَّ التوكُّلَ بالمعنى الشَّرعيِّ الذي أوضحناه هو مِنَ الأوامرِ الشرعيَّةِ التي يأثَمُ المسلِمُ إذا خالفَها وخرَج في عملِه واعتقادِه عن مقتضاها.. والدَّليلُ على أهميَّةِ التوكُّلِ وخطرِه في حياةِ المسلِمِ هو أنَّ اللَّهَ تعالى أمَر به النبيَّ بل الأنبياءَ مِن قبلِه، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهم أجمعينَ، كما أمرَ به المؤمنينَ

كافَّةً فقالَ -حكايةً عن حالِ جميعِ المرسلينَ السابقِينَ-:

- ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢].

- ويقولُ على لسانِ سيِّدِنا نوحٍ عليه السَّلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

- وعلى لسانِ هودٍ عليه السَّلام: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود: ٥٦].

- كما جاء الأمرُ صريحًا للنبيِّ ﷺ بأن يتوكَّلَ على اللَّهِ في أكثرِ مِن آيةٍ:

- ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: ١٢٨].

- ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

- ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩].

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩].

كما أمَر اللَّهُ المؤمنينَ كافَّةً بالتوكُّلِ عليه في قولِه تعالى:

- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ولا تقتصِرُ أهميَّةُ التوكُّلِ على ما ورَد في القرآنِ الكريمِ مِن أوامِرَ صريحةٍ، بل نجِدُها في السُّنَّةِ النبويَّةِ وبما لا يستوعِبُه زمنُ البرنامجِ، ويكفينا في هذا السِّياقِ الجوابُ العمليُّ الذي أجابَ به النبيُّ ﷺ صاحِبَ النَّاقَةِ، حينَ سألَه: هل يعقِلُها أو يُطْلِقُها ويتوكَّلُ على اللَّهِ؟ فقال ﷺ: «**اعْقِلْها وتَوَكَّلْ**»[١]، وكذلك قولُه ﷺ في الحديثِ الصَّحيحِ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كما يَرزُقُ الطَّيرَ، تَغدُوا خِماصًا وتَرُوحُ بِطانًا**»[٢]. وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذا الحديثِ الشريفِ في حلقةٍ قادمةٍ إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى.

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٣١) من حديث عمرو بن أمية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ في «جامعه» (٢٣٤٤) وابن ماجه في «سننه» (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث حسن صحيح».

التَّوَكُّل

(٢)

في حلقةِ اليومَ نناقِشُ دعوَى مَن يزعمون أنَّهم يتوكَّلون على اللَّهِ وحدَه دُونَ الأخذِ بالأسبابِ رغمَ وُرودِ الشَّرعِ بوجوبِ الأخذِ بالأسبابِ - وردُّنا على هؤلاءِ وأمثالِهم: أنَّهم بذلك يخالِفُون صريحَ القُرآنِ الكريمِ، وصحيحَ السُّنَّةِ النبويَّةِ مخالفةً صريحةً؛ فقد ضرَب النبيُّ -ﷺ!- لنا مَثلًا بيَّنَ فيه حقيقةَ التوكُّلِ، وارتباطَه -أشدَّ الارتباطِ- بالأخذِ بالأسبابِ التي تُؤدِّي إلى مُسبِّباتِها، وذلك في قولِه ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُوا خِمَاصًا وَتَرُوْحُ بِطَانًا**»[١].

ورغمَ وُضوحِ الحديثِ الشَّريفِ في لَفتِ الأنظارِ إلى ضرورة سبقِ الأسبابِ للمُسبَّباتِ في هذا المِثالِ إلَّا أنَّ

---

(١) تقدم تخريجه.

هؤلاءِ يُغالِطُونَ ويَلْغَوْن في فهم الحديثِ بما ينسجِمُ وأهواءَهم، فيفهمون منه أنَّ «الطَّيرَ» لم يَكُنْ لها حولٌ ولا قوَّةٌ، ولا عملٌ تقدِّمُه بينَ يدَي طلبِ الرِّزقِ، وأنَّ اللَّهَ تعالى رزقَها لمجَرَّدِ التوكُّلِ عليه دُونَ اتِّخاذِ أيِّ سببٍ مِنَ الأسبابِ، وهم يتعامَوْن عن الإشاراتِ العديدةِ التي تؤكِّدُ أنَّ «الطيرَ» إنَّما رُزِقَ «بالتوكُّلِ» المقرونِ باتخاذِ «الأسبابِ» من الغُدوِّ في الصَّباحِ، ومفارقَةِ الأعشاشِ والأوكارِ خِماصًا، أي: خاويةَ البطونِ، ثم تَلَمُّسِ الأشجارِ والبحثِ عن مواطنِ الرِّزقِ المختلِفَةِ، ثم الرُّجوعِ بعدَ الزَّوالِ بطانًا، أي: ممتلئةَ البُطونِ.

وهذه السلسلةُ هي -في حقيقتِها- إنما هي أسبابٌ وأعمالٌ قدَّمتها جماعاتُ الطَّيرِ وهي تطلبُ الرِّزقَ مِنَ اللَّهِ تعالى، ولو كان المقصودُ مِن الحديثِ إثباتَ حصولِ الرِّزقِ بسببِ التَّوكُّلِ وحدَه دُونَ حركَةِ الطَّيرِ وغُدُوِّها وبحثِ كلٍّ مِنها عما يناسِبُه مِن الأشجارِ والثِّمارِ- فلماذا ربطَ اللَّهُ تعالى بينَ كُلِّ هذه الحركاتِ وبينَ حُصولِ الرِّزقِ ربطَ المسبَّبِ بالسَّببِ؟! ولماذا لم يرزقْها وهي في أعشاشِها دُونَ تَكَلُّفِ الطَّيرانِ والارتحالِ والبحثِ عن مصادرِ القُوتِ، ما دامَ قد صحَّ منها التوكُّلُ على اللَّهِ، واللَّهُ تعالى قادرٌ على أن يرزقَها بمجرَّدِ التوكُّلِ؟!

وقد سبَق القرآنُ الكريمُ السُّنَّةَ المشرَّفَةَ في تقريرِ هذا التَّلازُمِ بينَ ضرورةِ اتِّخاذِ السَّببِ وحصولِ ما يترتَّبُ عليه مِن رِزقٍ أو غيرِه، وذلك في قِصَّةِ «مريمَ» -عليها السَّلامُ!- في قولِه تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: ٢٥].

وقد كان اللَّهُ -تعالى!- قادرًا تمامَ القُدرةِ، بل أَتَمَّها، على أن يُسقِطَ الرُّطبَ ابتداءً على «مريم» دُونَ أن يُكَلِّفَها فعل أيِّ شيءٍ، لكنَّه أمرَها بأن تَهُزَّ جِذْعَ النَّخلَةِ، رغمَ تَعبِها وإعيائِها ليبيِّنَ لنا سُنَّتَه -تعالى!- في ضرورةِ اتِّخاذِ الأسبابِ جنبًا إلى جنبٍ مع «التوكُّلِ». وهذا هو «التوكُّلُ» الشرعيُّ الذي أمرَ اللَّهُ به عبادَه وفي طليعَتِهمُ الأنبياءُ والمرسلون والمؤمنون به. ومعناه باختصارٍ: انحصارُ الاعتقادِ بأنَّ اللَّهَ -تعالى!- هو وحدَه الذي يُحدِثُ المسبَّباتِ ويوجدُها ويخرجُها مِن أسبابِها، وأنَّ «الأسبابَ» ليست إلَّا مُجرَّدَ إجراءٍ وضعَه اللَّهُ تعالى يسبِقُ حدوثَ المسبباتِ، لكنَّه لا يؤثِّرُ في حدوثِها، وأنَّ العَلاقَةَ بينَ الأسبابِ وما ينتجُ عنها مِن مسبَّباتٍ هي مِن بابِ «التَّجاورِ» أو «السَّبقِ» في الوقوعِ

ليس إلَّا ، وليست مِن بابِ التأثيرِ مِن أحدِهما في الآخَرِ، لا مِن قريبٍ ولا مِن بعيدٍ. .

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ
وَلا تَرْغَبَنْ فِي العَجْزِ يَوْمًا عَنِ الطَّلَبْ[1]

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ قَـالَ لِمَـرْيَمٍ
وَهُزِّي إِلَيْكِ الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ

وَلَـوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزَّةٍ
جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُـلُّ شَـيْءٍ لَهُ سَـبَبْ

نعم! هؤلاء الذين يقولون: نكتفِي بالتَّوكُّلِ على اللَّهِ، وليس بلازمٍ أن نتحرَّزَ ونحتاطَ من فيروس «كورونا» -مثلًا-، وأنَّ ما قدَّر اللَّهُ وشاءَه سوف يقعُ، سواء احترزنا أم لم نحترِزْ - هؤلاء يخرجون على توجيهاتِ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النبويَّةِ الصحيحةِ، وتحضُرُني هنا قصَّةُ سيِّدِنا عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أُناسٍ مِن أهلِ اليمنِ، كانوا يُلقِّبون أنفسَهم بالمتوكِّلِينَ، وكانوا يخرجُون إلى الحَجِّ بدُونِ زادٍ ولا ماءٍ ولا راحِلَةٍ،

---

(١) الطَّلب: اتخاذ السبب.

وقد رآهم «عُمَرُ» على هذه الحالِ فقالَ لهم: «مَن أنتم؟ **قالوا: نحن «المتوكِّلُونَ»، قال: بل أنتم «المتأكِّلون»** (أي: تأكلون مِن كَسبِ غيرِكم)، **وإنَّما المتوكِّلُ الذي يُلقِي حبَّةً في الأرضِ ثُمَّ يتوكَّلُ علَى اللَّهِ عزَّ وجَلَّ**»(١)، وحُكي عنه أيضًا أنَّه أنكَر على جماعةٍ جَلوسَهم في المسجِدِ بعدَ صلاةِ الجُمُعَةِ، وقال لهم: «**لا يَقْعُدَّن أحدُكم عن طَلَبِ الرِّزقِ ويقولُ: (اللَّهُمَّ ارزقني!) وقد عَلِمَ أنَّ السَّماءَ لا تُمْطِرُ ذَهَبًا ولا فِضَّةً**»(٢).

ومما يجِبُ أن يعتزَّ به المسلِمُ أيَّما اعْتزازٍ في بابِ «تعظيمِ» العملِ وشَرفِه ووجوبِه -على القادرين- في جميعِ الأحوالِ والظُّروفِ والمناسباتِ قولُه ﷺ!: «**إذا قامَتِ السَّاعةُ وبِيَدِ أحدِكُم فَسِيلةٌ فإنِ استطاع ألَّا تقومَ حتَّى يغرِسَها، فليفعَلْ**»(٣).. ومعنَى الحديثِ: لو أنَّ الأرضَ زُلزِلَت

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٥٢٤)، والحديث أصله في صحيح البخاري (١٥٢٣) من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنه، بسياق مختصر.

(٢) أخرجه ابن عبد ربه في «العقد الفريد»: ٢/ ٣٤٢، والغزالي في «إحياء علوم الدين»: ٢/ ٦٢.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند»: (١٢٩٨١)، والبخاري في «الأدب =

وقامَتِ القيامَةُ، وفي يَدِ مسلِمٍ شَتْلَةُ نَباتٍ صغيرةٍ، فإن استطاعَ أن يزرَعَها ويَغْرِسَها في الأرضِ فواجبٌ عليه شرعًا أن يغرِسَها.

وقد يَرِدُ -في هذا السِّياقِ- تساؤلٌ مشروعٌ، هو: كيف يتوَجَّهُ على المسلِمِ أَمرٌ شرعيٌّ بالقيامِ بعملٍ يَتَيَقَّنُ كُلَّ اليقينِ أنَّه لا جدوَى منه، بل يراه في مثلِ هذه الظُّروفِ عبثًا وضَرْبًا مِن كواذب الأوهام والأماني؟!.. والجوابُ: أنَّ العملَ في شريعةِ الإسلامِ واجبٌ شرعيٌّ متى بَقِيَ للمسلمِ قَدْرٌ مِن عقلٍ وقدرةٍ على القيامِ به، بغَضِّ النَّظرِ عمَّا يترتَّبُ على هذا العملِ مِن ثمارٍ أو نتائجَ.

والإسلامُ يتفرَّدُ بهذه النَّظرةِ إلى «العملِ» وقيمَتِه، ويَطْلُبُه لذاتِه أوَّلًا قبلَ أن يكونَ مطلوبًا لغيرِه، لأنَّ الهدفَ مِنَ العملِ في الإسلامِ أعمُّ مِن أن يكونَ منفعةً لشخصٍ أو أسرةٍ أو مجتمعٍ، وإنَّما الغايةُ منه منفعةُ الإنسانيَّةِ بأسرِها على اختلافِ الزَّمانِ والمكانِ..

هذا وباللَّهِ التَّوفيقُ..

والسَّلامُ عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

= المفرد»: (٤٧٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التَّوَكُّل

(٣)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

المشاهدون الكرام! السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته . .

وبعد؛

فهذه حلقة تدور حول موضوع «السببية» أو «العِلِّيَّة» وطبيعة العلاقة بين طرفيها : السبب أو العلة من ناحية، والمسبَّب أو المعلول من ناحية أخرى، وهذا الموضوع يتعلق بقضية التوكل على اللَّه تعالى، ويمسُّها مسًّا مباشرًا، وتيسيرًا على السادة المشاهدين سوف نتخذ موضوع النار والإحراق مثالًا نمثل به : «النار» سببًا أو عِلَّة، و«الاحتراق» مسبَّبًا ومعلولًا .

أيها السادة المشاهدون!

كل منا يعلم علم اليقين من مشاهدته اليومية للعلاقات بين الأشياء في عالم المحسوسات أنه لا يمكن أن يحدث «شيء»

أو يوجد من «لا - شيء»، فإذا شاهدنا مثلًا قطعة من القطن أو الورق تحترق فإن العقل يفترض أن هناك «نارًا» كانت هي السبب أو العلة في حدوث ظاهرة الاحتراق، وحين نقف أمام هذا المثال، أو هذه الظاهرة وِقفة تأملٍ فلسفيٍّ عميق نجد أن هذه الظاهرة تتركب من ثلاثة عناصر:

الأول: النار، وهو ما يسمى بالسبب، أو العلَّة (في لغة الفلسفة).

الثاني: الاحتراق، وهو ما يسمى المسبَّب، أو المعلول (في لغة الفلاسفة أيضًا).

الثالث: العلاقة بين النار كسبب والاحتراق كمسبَّب.

والعنصر الأول ظاهر للحسِّ وللعيان ظهورًا يستحيل معه الجدل أو النقاش في ثبوته ووجوده، وكذلك العنصر الثاني يثبته الحس والعيان ثبوت الشمس في رابعة النهار.

أما العنصر الثالث وهو العلاقة بين النار والاحتراق فهو عنصر شديد الخفاء والغموض؛ بسبب أن برهان الحس والعيان والمشاهدة لا يُثْبت لحواسِّنا أن النار هي التي أحدثت الاحتراق وخلقَتْه في القطن أو الورق، وكل ما

تثبته المشاهدة هو أن ظاهرةً أولى حدثت، وهي النار، أعقبتها في الحدوث ظاهرة ثانية هي: الاحتراق، ولا شيء بعد ذلك مما يتعلق بهاتين الظاهرتين؛ وإذا ما رمزنا إلى النار برمز «أ»، وللاحتراق برمز «ب»، فإن كل ما في أيدينا من براهين وأدلة لا يقول أكثر من أننا تعودنا أن نرى «ب» تحدث كلما حدث «أ»، أما أن «أ» هي التي أَوْجدت «ب» وخَلَقتْها فهذا ما لا أعرفه، فقد تكون «أ» هي التي أَوْجَدَت «ب»، وقد تكون هناك قوة أخرى هي التي أَوْجَدتْ «أ» و «ب» معًا.

هذا التساؤل تصدَّى له بعض من عظماء الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين، وبعض من فلاسفة الغرب في العصر الحديث؛ لما له من اتصال مباشر بمسألة الاستدلال على وجود اللَّه -تعالى!- بدليل العِلَّة والمعلول، وقد كانت لهؤلاء وهؤلاء أنظار بالغة الدِّقَّة والعُمق الفلسفي، يهمنا منها -في هذه العجالة- موقف الأشاعرة، وبخاصة عند الإمام الغزالي -رحمه اللَّه!-.

وربما يَنفرد الإمام الغزالي بصراحته المطلقة في اقتحام هذه المشكلة، وهو يُقرِّر أنه ليس بصحيحٍ ما نعتقده من أن

السبب -أو العِلَّة- في عالم الأشياء والظواهر الإنسانية والطبيعية يُوجِد المسبَّب أو المعلول، ومِن ثَمَّ ليس صحيحًا أن «النار» هي التي توجِد الاحتراق أو تحدثه؛ والصَّحيح أن مَن أوجد الاحتراق -عند ملاقاة النَّار للقطن- هو: اللَّه -تعالى!- وحده..

وحين يعترض معترض على الإمام الغزالي بأن المشاهدة -وهي أقوى الأدلة والبراهين- تُؤكِّد أنه كلما حدثت ملامسةُ النار للقطن حدث الاحتراق، وأننا لم نر قُطْنًا يحترق بدون نار، وأن هذا الارتباط الذي لم يتخلف مرة واحدة في عالم المشاهدات لهو البرهان الساطع على أن النار هي فاعلة الاحتراق، وأن العلاقة بين الأسباب والمسببات هي علاقة عِلَّة بمعلول، أو مُحدِث بحادث؛ كالعلاقة بين الأكل والشبع، والماء والرِّيِّ، وآلات القتل وإزهاق الأرواح، وغيرها من آلاف آلاف التجارب والمشاهدات..

أقول: حين يُعترض بهذا الاعتراض فإن الإمام الغزالي يتصدى لتفنيده بأدلة عقلية وتجريبية يصعب عرضها في هذه الحلقة، ولكن يمكن تلخيصها فيما يلي:

أوَّلًا: إن الأسباب كلها هي من عالَم الجمادات التي لا علم لها ولا إرادة ولا مشيئة.. والخَلْقُ والإيجادُ -الذي هو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود- لا يمكن أن يحدث من علة -كالنار مثلًا- لا علم لها ولا إرادة ولا مشيئة، والإخراج من العدم إلى الوجود لا بُدَّ له من فاعل عالم بما يخرجه ومريد لخروجه من العدم للوجود.

ثانيًا: حجر الزاوية في بناء المذهب الأشعري بعامة، سواء فيما يتعلق بأصول الدين أو في فروعه - هو المبدأ المنطقيُّ الثابت، والذي يُقرِّر أنَّه لا فاعل ولا مؤثِّر في الأكوان والأشياء والمخلوقات كلها إنسانيَّة أو طبيعيَّة إلَّا «اللَّه» - تعالى!- وحده.. وأَصْلُ ذلك -عند الأشاعرة- أن صفة «القدرة» الإلهية شاملة وعامة لا يخرج عنها مقدور واحد من مقدورات الكون.. ويلزم على ذلك أمران:

الأول: أن اللَّه هو -وحده- الخالقُ والموجدُ والفاعل في كل ظواهر الكون وأشيائه والعلاقات بينها.

الثاني: لا شيء في هذا الكون يمكن أن يستقل بالتأثير في شيءٍ آخر.

وقد تغلغل هذا المبدأ في المذهب الأشعري، وحَكَم كل تصورات الأشاعرة وأنظارهم سواء في الإلهيات أو الطبيعيات أو الأخلاقيات. . ومن هنا يصعب جِدًّا إن لم نقل: يستحيل -أن يجتمع -في مذهبهم- الاعتقادُ بشمول القدرة الإلهية لكل المقدورات وعمومها لسائر الممكنات، ما كان منها إنسانيًّا وما كان طبيعيًّا، والاعتقاد بثبوت أي تأثير لأي شيء غير اللَّه -تعالى!- بما في ذلك الأسباب والمسببات، وما يبدو للعيان من تأثير بعضها في بعض، فالجمع بين هذين الطرفين هو جمع بين نقيضين يستحيل اجتماعهما معًا.

ثالثًا: أما اعتراض الخصوم بأن تكرار حدوث المسبَّب بعد حدوث سببه، كاف في إثبات علاقةٍ حتميَّةٍ وضروريَّةٍ، هي علاقة التأثير والتأثُّر بين السبب والمسبَّب، فإن الإمام الغزالي، يَرُدُّ هذا الفرض ويستبدل به فرضًا آخر يؤكد فيه أن العلاقة بين السبب والمسبَّب ليست علاقة تأثير وإيجاد، وإنما هي علاقةُ «اقترانٍ» عادي، أو تجاورٍ متكرِّرٍ، وأن تكرار الاقتران بينهما وتتابعه بحكم العادة

التي سنَّها اللَّه -تعالى!- لتسيير عالَم الكائنات والأشياء - هو الذي خَدَعَنا وجعلنا نعتقد أن السَّبب يستتبع مُسبَّبَه لا محالة؛ وأن النار هي التي فعلت الاحتراق وأحدثته، وإلَّا فإنَّ مجرَّد «الاقتران» الدائم بين ظاهرتين لا يدلُّنا -عقْلًا ولا مشاهدةً- على أن إحداهما علة مُوجدة، والأخرى معلولة لها في وجودها، حتى لو تكرر ذلك ملايين الملايين من المرات، وإذن فالبرهنة على إثبات هذه العلاقة -حِسًّا أو عقلًا- لا سبيل إليها.

بل يذهب «الإمام» إلى ما هو أبعد من ذلك فيُقرِّر أن في إمكان القدرة الإلهية أن تُحدِث «الاحتراق» من غير نار، والشِّبع من غير طعام، والموت بغير سبب يؤدي إليه.. وفي مقدورها أن تُلامس النار القُطْن ولا يحترق..

وما ذهب إليه الأشاعرة في هذه القضية يتناقض جذريًّا مع ما ذهب إليه بعض فلاسفة المسلمين المتأثرين بالفكر الإغريقي كالفارابي وابن سينا مِمَّن قالوا بأن الأسباب - طبيعية أو غير طبيعية- تؤثر بطبعها اضطرارًا لا اختيارًا، فالنار هي التي تحرق بطبعها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وفي

جميع الأحوال والظروف، ولا دَخْلَ لأيِّ مؤثِّر آخر غير طبيعتها التي طبعها اللَّه عليها، متى تحقَّقت الشروط، وانتفت الموانع..

وحين نحتكم إلى القرآن الكريم فإنه يتبيَّن لنا -في وضوحٍ- أن مذهب الأشاعرة في هذه القضية هو أصحُّ المذاهب على الإطلاق، فقد أثبت القرآن الكريم أن النتائج التي تعقب الأسباب مرهونة بقدرة اللَّه تعالى وتدخُّله في كل مثال من الأمثلة التي يُخيَّلُ إلينا -فيها- أن الأسباب هي التي تُوجِد النتائج المنتظرة بعد حدوثها.. انظر إلى قوله تعالى في قصة إلقاء إبراهيم -عليه السلام- وقَدْ ألقوه في قلب جحيم مشتعل من النيران: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].. ومحل الشاهد في الآية الكريمة أن «النار» توفرت لها كل شروط الإحراق، إلَّا أن «احتراق إبراهيم بها» لم يحدث، مما يدل المؤمنين باللَّه -تعالى!- على أن نتائج الأسباب مصيرها بيده -سبحانه!- إن شاء حدوثها حدثت، وإن لم يشأ لم يحدث.. وليس مصيرها بيد أسبابها تحدثه بذاتها أو بطبيعةٍ ثَبَّتها اللَّه فيها.. ولو كان

الأمر كذلك، وكانت النار تحرق بطبيعتها، لما تخلَّفت طبيعة الإحراق عن النار في قصة إبراهيم -عليه السلام!- لأن القاعدة العقلية تقرر أن «ما بالذات لا يتخلف» وشرح هذه القاعدة مما لا يتسع له المقام.

وقل مثل ذلك في قصة إسماعيل -عليه السلام!- فقد قُدِّم للذبح واتُّخِذَت أسباب الموت من آلة حادَّة، ومباشرة للقطع والذبح، إلَّا أن الموت لم يحدث، وقُل مثل ذلك -أيضًا- في الطريق اليابس الجاف الذي ضُرِب في عرض البحر لإنقاذ موسى -عليه السلام!- ومَن معه، وحولهم المياه تصطفق يمينًا ويسارًا كالجبال دون أن تطبق عليهم وتغرقهم. بل قُل مثل ذلك في سائر معجزات الأنبياء والمرسلين، فإنها لا تفسير لها إلَّا التسليم بأن علاقة التأثير والتأثُّر بين السبب والمسبَّب، والعلة والمعلول ليست حتمية ولا ضرورية، وأن ما بينهما ليس إلَّا تجاورًا وتتابعًا في الحدوث. .

.. .. ..

والسؤال المحوري الآن، هو: ما العلاقة بين هذا «التحليل» وبين «التوكل على اللَّه» موضوع الحلقة؟

والإجابة بإيجاز، هي: أن المؤمن مأمور في موضوع التوكل بأمر عمليٍّ، وأمر اعتقاديٍّ.

- أما الأمر العملي فهو ضرورة اتخاذ الأسباب ومباشرتها.

- وأما الأمر الاعتقادي فهو الإيمان بأن هذه الأسباب ليست هي «العلة الموجِدة» لما يحدث معها -أو بعدها- من مسبَّبات أو نتائج، أما المُوجِد والفاعل والمُحْدِث لها فهو «اللَّه» -تعالى!- وحده لا شريك له.. وبعبارة الأشاعرة: «يخلق اللَّه المسبَّبات عند اتخاذ أسبابها لا بها».

ونختم حلقتنا بمثال محسوس يعين على تصور مذهب الأشاعرة في هذه القضية البالغة الدِّقَّة، وهو مثال العلاقة بين «القلم» كسبب و «الكتابة» كمسبَّب، فأنت لا تستطيع أن تقول: إنَّ مَنْ أحدث الكتابة هو «القلم» وحده وبذاته أو بطبيعته وفي استقلال عن الكاتب؛ لأن القلم -بذاته- جمادٌ لا يَعي ما الحروف ولا الكلمات، وهو مفتقر في «حدوث» الكتابة بعده إلى ذات أخرى مستقلة تحركه أو لا تحركه فتحدث الكتابة أو لا تحدث.

وهنا -في هذا المثال- ما أشبه النار في مثال الاحتراق، بالقلم في مثال الكتابة، فكما يحتاج القلم في حدوث أثره إلى ذات تحركه فتحدث الكتابة، فكذلك النار تحتاج في حدوث الاحتراق إلى ذات تحدثه.. وإذا كان القلم لا تحدث عنه الكتابة بدون تدخل الكاتب، فالنار لا يحدث عنها الاحتراق بدون تدخل القُدرة الإلهيَّة وقَبْضتِها التي تمسك السموات والأرض أن تزولا.

شكرًا لحضراتكم..

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته..



الرَّحمةُ

المشاهدون الكرام!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته. . وبعد؛

فإنَّ من أبرزِ الصِّفاتِ الخُلُقيَّةِ التي أمَرَنا الشَّرعُ بالتحلِّي بها، ويحتاجُها الناسُ لضمانِ حياةٍ إنسانيَّةٍ كريمةٍ -صفةَ الرحمةِ والتراحُم؛ لِما لها مِن أثرٍ بعيدِ المدَى في تبادلِ الشُّعورِ بالمحبَّةِ وتعميقِ أواصرِ المودَّةِ، ولِما لِغيابِها من أثرٍ سيِّئٍ في تعريض حياةِ الناسِ إلى التَّباعُدِ والتفكُّكِ الأُسَريِّ والاجتماعيِّ، وإيقاظِ نوازعِ الشَّرِّ وإشعالِ الحروبِ، والتسلُّطِ على البلادِ والعبادِ.

ويكفينا دلالةً على عَظمةِ هذه الصِّفةِ أنَّ اللَّهَ تعالى تَسمَّى بها، مرَّةً باسمِ الرحمنِ، ومرَّةً باسمِ الرَّحيمِ. . وأنَّ اسمَ «الرَّحم» التي هي علاقةُ القُربى ومناطُ التواصلِ بينَ بني آدمَ، مُشتقٌّ من صِفة الرَّحمةِ التي اتصف بها اللَّه تعالى.

وقد ورَدَت صفةُ الرَّحمةِ ومشتقَّاتُها في القُرآن الكريمِ تسعًا

وتسعينَ ومئةَ مرةٍ، وبمعانٍ كثيرةٍ؛ منها: أرزاقُ المخلوقاتِ، والغَيثُ المُرسَلُ من السَّماءِ، والعافيةُ من الابتلاءِ والاختبارِ: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، ومِن معانيها الأُلفةُ والمحبَّةُ، قالَ تعالى في شأنِ أتباعِ سيِّدِنا عيسَى -عليه السلامُ-: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وقد وصف اللّهُ بها التوراةَ المنزَّلةَ على سيِّدِنا مُوسى -عليه السَّلامُ- في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، كما وَصفَ بها القرآنَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

والرَّحمةُ في بني آدمَ هيَ إرادةُ إيصالِ الخيرِ، وهي حالةٌ وجدانيةٌ تَعرضُ للإنسانِ الرَّقيقِ القلبِ، وهي مبدأُ الرَّأفةِ بالآخَرِ والإحسانِ إليهِ. . أمَّا الرَّحمةُ التي يتَّصِفُ بها اللّهُ سُبحانه فليسَتْ مِن هذا القَبيلِ، إنَّها مِن قَبيلِ الإحسانِ المجرَّدِ عنِ الأعراضِ الماديَّة الحسيَّة التي تلازمُ الرحمةَ

الآدميَّةَ مِنَ الشُّعورِ بالرأفةِ والتألُّمِ، ومحاولةِ دفعِ الألمِ عمَّن يرحمُهُ، ونجاحِه أو إخفاقِه في إزاحتِه. .

نعم! رحمةُ اللَّه بعبادِه هي مِن طَورٍ آخَرَ مختلفٍ عن طَورِ رحمةِ بني آدمَ بعضِهم لبعضٍ، وليسَ فيها من شَبَهٍ بالرَّحمةِ الآدميَّةِ غيرُ الاشتراكِ في الاسْمِ. . فهي أوسعُ وأشملُ، تسعُ الخلقَ كلَّهم في الدُّنيا والآخِرةِ، وقد كتبَها اللَّهُ على نفسِهِ وأخبرَ بذلكَ في كتابِهِ الكريمِ، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي: وسِعَت في الدُّنيا كلَّ بَرٍّ وفاجرٍ، وقال في الحديث القدسي: «**إنَّ رحمتي تغلِبُ غضَبي**»[1] ومعنى غَلَبَة الرَّحمةِ أو سَبقِها: أن رِفْقَه تعالى بعباده، وإنعامَه عليهم ولُطفَه بهم أكثرُ كثيرًا مِن انتقامِه، فاللَّهُ أرحمُ بعبادِه من الوالدةِ بولدها.

وقد رغَّب اللَّهُ عبادَه في الرَّحمة والتراحمِ بجميع صُوره وأشكالِه، وحذَّر من الجفاءِ والغِلظة وقسوة القلوب،

---

(1) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٣١٩٤) ومسلم في «صحيحه» (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتوعَّد غِلاظَ الأكباد بالحِرمان من رحمته، يقول النبي ﷺ: «**مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَمُ**»[(١)]، أي: لا يستحق رحمةَ اللَّه تعالى إلَّا الراحمون الموفَّقون. كما وسَّع من مجالاتِ تداولِها حتى شَمِلت عوالمَ المخلوقاتِ كلَّها، وتراكَم في تُراثِنا من هذه التعاليمِ ما يَستحقُّ المباهاةَ والفخارَ، فاللَّهُ الذي يؤمِنُ به المسلمونَ هو: «الرَّحمن الرحيم»، ورسولُهم الذي يتبعونَه هو «الرؤوفُ الرحيمُ»، والعبادُ على اختلافِ ألوانِهم وعقائدِهم ومِلَلِهم وأديانِهم إخوةٌ في فلسفةِ الإسلامِ.. وأُخوَّتُهم ليست «دَعوى» يُحتاجُ في استنباطِها إلى تلمُّسِ الأدلةِ والبراهين.. بل هي شهادةٌ يوميةٌ، كان رسولُ الإسلامِ ﷺ يردِّدُها عَقِبَ صلواتِه اليوميةِ ويقولُ فيها: «أنا شهيدٌ أنَّ العِبادَ كلَّهم إخوةٌ»[(٢)].. وحَقُّ السَّلام مكفولٌ للعِبادِ كُلِّهم في شرائعِ هذا الدينِ، والإسلامُ لا يسعى للحربِ ولا لإراقةِ الدِّماء ما وَسِعَه

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٥٩٩٧) ومسلم في «صحيحه» (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود في «سننه» (١٥٠٨) من حديث زيد ابن أرقم رضي الله عنه.

ذلك، وهو يعتصمُ بمبدأ «السَّلامِ» إلى آخِر مدًى ممكن: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. «**لا تَتَمَنَّوا لِقاءَ العَدُوِّ، وسَلُوا اللَّهَ العافيةَ**»[1].

والمسلمون لا يُقاتِلون إلا مَن يُقاتِلُهم: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وهذه عدالةٌ مطلقةٌ لا تُعرفُ لغيرِ المسلمينَ في أحكامِ الحروبِ ومواقعِ القتالِ. وإنْ وَقَعَ قتالٌ في الإسلامِ فهو لِدَفعِ عدوٍّ مقاتلٍ، وصَدٍّ لهجُومِه، وصَوْلتِه على المسلمين؛ ودفاعُ المسلمِ أو قتالُه لعدوِّه مضبوطٌ بالعدلِ وعدمِ التجاوزِ؛ فإنْ تجاوَز المسلِمُ في قتالِه كان عُدوانًا يكرَهُه اللَّهُ، ولو كان ذلك مع الكافرين.

وإذا فُرِضَ القتالُ على المسلمينَ فلا يَحِلُّ لهم أن يَقتلوا الرُّهبانَ، ولا الصبيانَ، ولا النِّساءَ، ولا الفلاحينَ، ولا العجزةَ ومكفوفي البَصرِ في جيش العدوِّ، بل لا يحلُّ لهم قَتلُ الحيواناتِ في جيشِ الأعداءِ إلَّا لضرورةِ الأكلِ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٢٩٦٦) ومسلم في «صحيحه» (١٧٤٢) من حديث عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

وقد أحسَن أديبُ العربيَّةِ في العَصرِ الحـديثِ: مصطفى صادق الرَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في قولِه: «**إنَّ لسيوفِ المسلمينَ أخلاقًا**».

ولعلَّكم تتساءَلونَ عن مُناسبةِ هذا الكلامِ لموضوعِ الحلْقةِ، والإجابةُ ظاهرةٌ: إنَّها الرَّحمةُ التي تجسَّدت بتمامِها في نبيِّ الإسلام، وأعلَت صوتَه في العالمينَ: «**إنَّما أنا رحمةٌ مهداةٌ**»[1]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] إنها الرحمةُ بالإنسانِ والرحمةُ بالحيوانِ: «**إذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحةَ، وإذا قتلتم فأحْسِنوا القِتلةَ**»[2].

إنها الرحمةُ التي تتساوى فيها الدماءُ؛ فيُقتلُ الجمعُ بالواحدِ إذا اشتركوا في إراقةِ دمِه، جاءَ في «الموطَّأ»[3]: أن عمر بنَ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتل نفرًا -خمسةً أو سبعةً- برجلٍ واحدٍ، قتلُوه في اليمن قَتلَ غِيلةٍ، أي: خادَعوه وأَمَّنوه ثمَّ قتلوه، قال عمرُ: «لو تَمالَأَ عليه أَهلُ صنعاءَ لقَتلتُهم به».

---

(١) أخرجه البزَّار في «مسنده» (٩٢٠٥) والطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٢٩٨١) والحاكم في «المستدرك»: ١/ ٣٥، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الحاكم: «حديث صحيح، على شرط البخاريِّ ومسلم».

(٢) أخرجه بنحوه مسلم في «صحيحه» (١٩٥٥) من حديث شدَّاد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) برواية يحيى بن يحيى اللَّيثيِّ (٢٥٥٢).

صِلَةُ الرَّحِم

المشاهدون الكرام!

عرضنا في الحلقةِ السَّابقةِ أهميَّةَ خُلُقِ الرحمةِ ومركزيتَه في استقرارِ المجتمعاتِ وكيفَ كانت مطلبًا من المطالبِ الشَّرعيَّةِ التي أُمِرَ بها المسلمونَ.. ونقولُ اليوم:

إذا كانت الرحمةُ مطلوبةً من المسلمِ مع جميعِ الناسِ، فمن حقِّ الوالدَينِ والأهلِينَ أن ينالَهم النصيبُ الأوفى من هذه الرحمةِ.. ومن حقِّهم أنْ يُفرَد لموضوعِ «صلةِ الأرحامِ» مساحةٌ لافتةٌ للنَّظرِ في بابِ «فلسفةِ الأخلاقِ» في الإسلام؛ وهذا ما نُطالِعُه في نصوصٍ كثيرةٍ وردَت في التَّرغيبِ في صلةِ الأرحامِ ووجوبِها على الأبناءِ والبناتِ، والتَّحذيرِ من تجاهُلِها أو تَناسِيها..

وأوَّلُ ما ينبغي أن نَعلَمَه في هذا الموضوعِ هو ما ثَبَتَ في الحديثِ الشَّريفِ من أنَّ «الرحم» وقفَتْ بين يدَيِ اللَّهِ تعالى بعد أن خَلقَ الخلقَ وفَرَغَ منهم، وتعلَّقت بالعرشِ،

واستجارَت به، وسألَتْه أن يُعيذَها من القَطيعةِ -أي ممَّن يقطَعُها ولا يَصِلُها-. وكأنَّها كانت تَتَحسَّبُ لما سيُصِيبُها في قابِلِ الأزمانِ والآمادِ، وقد استجابَ اللَّهُ لها وأجارَها ووعدَها بأنْ يَصِلَ مَن يصِلُها ويقطعَ مَن يقطعُها، وقال لها فيما تَروِيه أحاديثُ الصِّحاحِ: «أَمَا تَرضَينَ أن أَصِلَ مَن وَصَلكَ، وأقطعَ مَن قطعَك؟! قالت: بلى، قال: فذلكَ لكِ» ثم قالَ رسولُ اللَّه ﷺ اقرؤوا إن شئتُم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٤][١].

وخطابُ القرآنِ في هذه الآياتِ مُتوجِّهٌ إلى مَن أعرضَ عن أوامرِ اللَّه تعالَى وتولَّى عنها، وأفسدَ في الأرضِ وأشعلَ فيها الفتنَ، وشنَّ الحروبَ وشجَّع على القتالِ والنهبِ، غير مبالٍ بالكوارثِ التي تَكرث الناس من تَمزُّق الأُسَر، وتَفرُّق العائلاتِ، وتَشْريد ذوي الأرحامِ.. وهؤلاءِ هم الذين

---

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٤٨٣٠) ومسلم في «صحيحه» (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لعنَهم اللَّهُ -في الآية- بسببِ صَمَمِهم عنِ استماعِ الهدي الإلهيِّ وعَمَى أبصارِهم عن سلوكِ الطريقِ القويمِ.. وواقعُ الحال اليومَ يُؤكِّدُ أنَّه لا مخرجَ من هذه المأساةِ الإنسانيةِ المتكررةِ إلَّا بتدبُّرِ ما جاء في القرآنِ الكريمِ من ضوابطِ الأخلاقِ والقيمِ التي تَحمِي الحقوقَ العامةَ للفردِ والمجتمعِ؛ حمايةً حقيقية تقومُ على العدلِ والمساواةِ بين الناسِ، ومُراعاة المصلحةِ العامةِ التي لا يَتميَّزُ فيها إنسانٌ عن إنسانٍ، ولا بلدٌ عن بلدٍ، ولا شعبٌ عن شعبٍ.. ولكن كيف يَتأتَّى ذلك لمن أغلقُوا قلوبَهم بأقفالِ الكِبرِ والغطرسةِ والضلالِ!

إنَّ الدرسَ الذي نَستخلصُه من هذه الآياتِ الكريمةِ هو أنَّ جريمةَ «قطع الرحم» تكادُ تُعادِلُ جريمةَ الفسادِ في الأرضِ بكلِّ بَشاعتِها، وبكلِّ ما يَنتجُ عنها من حروبٍ وهلاكٍ وتدميرٍ..

المشاهد الكريم!

علينا أن نَعلَم أنَّ صلةَ الرحمِ ليست مجرَّدَ فضيلةٍ من الفضائلِ؛ للمُسلمِ أن يفعلَها فيُثاب عليها، أو يتركها

فلا يُعاقب عليها، وشيءٌ من هذا الفهمِ الخاطئِ لا يزالُ ينتشرُ بين كثيرينَ وكثيراتٍ ممَّنْ يستهينونَ بصِلةِ الأرحامِ، وتهونُ عليهم قطيعتُها، والحقيقةُ التي يجبُ علينا أن نَتَنبَّهَ لها هي أنَّ صلةَ الرَّحمِ أمرٌ شرعيٌّ أمر اللَّه به، يَستَوجِبُ الطاعةَ، وأن قطيعتَها نهيٌ إلهيٌّ يستوجِبُ الكَفَّ والامتناعَ، فهي مَناطُ الثوابِ أو العقابِ يومَ القيامةِ.

جاء رجلٌ إلى النبيِّ -ﷺ- فقال: يا رسولَ اللَّه، أخبِرْني بعملٍ يُدخِلُني الجنَّةَ، فقال النَّبيُّ -ﷺ-: «**تَعبُدُ اللَّهَ ولَا تُشرِكُ به شيئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزَّكاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ**»[1].

وتُلاحظون -حضراتُكم- أنَّ الأمرَ بصلةِ الرحمِ يقفُ في هذا الحديث على قَدَمِ المساواةِ مع الأمرِ بالتوحيدِ وإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ، ونحن لا نقولُ بأنها ركنٌ من أركان الإسلام، ولكنَّ سَوْقَها هذا المساقَ في الحديثِ الشَّريفِ مع أركانِ الإسلامِ يُفِيدُ عِظَمَ شأنِها، وشِدَّةَ خطَرِها، وهو تحذيرٌ لمن يقعُ في هذا المحظورِ الشَّرعيِّ.

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (١٣٩٦) ومسلم في «صحيحه» (١٣) من حديث أبي أيُّوب الأنصاريِّ رضي الله عنه.

وقد حذَّرَ النبيُّ ﷺ من الوقوعِ في هذا الذَّنبِ العظيمِ صَراحةً فقالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ**»[1]. وقال في حديثٍ آخَرَ: «**لا يَدخُلُ الجنَّةَ مُدْمِنُ خمرٍ، ولا مُصَدِّقٌ بِسِحرٍ، ولا قاطِعُ رَحِمٍ**»[2].

وقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أنَّ قاطعَ الرحمِ يُعجِّلُ اللَّهُ عقوبتَه في الدنيا مع ما يدَّخِرُه له في الآخرةِ من عذابٍ أليمٍ، يقول النبيُّ ﷺ: «**ما مِن ذنبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللَّهُ تعالى لصاحبِهِ العقوبةَ في الدُّنيا، مع ما يُدَّخَرُ له في الآخِرةِ، مِثلُ البغيِ وقطيعةِ الرَّحِمِ**»[3]، وفي الأثر أنَّ أبوابَ السماءِ مُغلَقةٌ في وجهِ قاطعِ الرحمِ[4].

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٥٩٨٤) ومسلم في «صحيحه» (٢٥٥٦) من حديث جُبير بن مطعِم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٥٦٩) وابن حبَّان في «صحيحه» (الإحسان/ ٦١٣٧) والحاكم في «مستدركه»: ٤/ ١٤٦، من حديث أبي موسى الأشعريِّ، وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد».

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٩٠٢) والتِّرمذيُّ في «جامعه» (٢٥١١) وابن ماجه في «سننه» (٤٢١١) من حديث أبي بكرة، وقال التِّرمذيُّ: «حديث صحيح».

(٤) روى مَعمَر في «جامعه» (٢٠٢٤٢) ومن طريقه الطَّبرانيُّ في =

إنَّ هذه الآفةَ أصبحتِ اليومَ أشبهَ بسلوكٍ معتادٍ بين الأقاربِ، أدَّى إلى تَقطيعِ أوصالِ العائِلاتِ، وزَرْعِ الكُرْهِ والأحقادِ بين الأخِ وأختِه، والأخِ وأخيهِ، بل بين الولدِ وأمِّه وأبيه، وهو أمرٌ غريبٌ على مجتمعاتِنا الشَّرقيَّةِ التي أشرقَ فيها نورُ الأديانِ الإلهيَّةِ منذُ آلافِ السنينَ.

إنَّ مجتمعاتِنا لا تزالُ تُعوِّلُ كثيرًا على عنصرِ «الدفءِ الأُسَريِّ» وعلى التآلفِ والتواصُلِ والتراحمِ بين أفراد الأسرة والأقاربِ وذوِي الرحم.. وإنَّ الأسرةَ الحديثةَ التي تقوم في بعض البلدان على التوحُّدِ والتفرُّدِ لها ظروفُها الاقتصاديةُ والاجتماعيةُ الخاصة بها، والتي صنعتْ منها هذا الأنموذجَ، وهو إنْ كان أنموذجًا أمثَلَ للأسرةِ في هذه البلاد، فإنَّه -وبكلِّ تأكيدٍ- ليس كذلكَ بالنِّسبةِ لأُسرِنا وعائلتِنا، التي استقرَّ في وجدانِها هذا التحذيرُ الإلهيُّ من قطعِ صلةِ الأرحامِ، وعرَفَت أوامرَ الشَّرعِ في وَصلِها في كلِّ الظُّروفِ والأحوالِ.

= «المعجم الكبير» (٨٧٩٣) والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٧٥٩٢): أنَّ عبد اللَّه ابن مسعود رضي الله عنه كان جالسًا بعد الصُّبح في حَلْقة، فقال «أَنْشُدُ اللَّهَ قَاطِعَ رَحِمٍ إلَّا ما قَامَ عَنَّا، فَإِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَدْعُوَ رَبَّنَا، وَإِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ مُرْتَجَةٌ دُونَ قَاطِعِ الرَّحِمِ».

السادة المشاهدون!

هناك بُشرياتٌ كبرى يزُفُّها النبي ﷺ لمن يتغلَّبُ على دواعي الشَّيطانِ وشَهَواتِ النَّفْسِ، ويبدأُ في صِلةِ رحِمِه، أو يكونُ هو البادئَ بالصلةِ بعد توقُّفِها.. ومن هذه البُشرياتِ قولُه ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، ويُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١). ويُروى عنه في حديث آخر -صلواتُ اللَّه وسلامُه عليه-: «**إنَّ الصَّدَقَةَ وَصِلَةَ الرَّحِمِ يَزِيدُ اللَّهُ بِهَا فِي الْعُمُرِ، وَيَدْفَعُ بِهَا مِيتَةَ السُّوءِ، وَيَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا الْمَكْرُوهَ وَالْمَحْذُورَ**»(٢).

واعلم -أخي!- المشاهِدَ أن صلةَ الرحمِ ليست هي أن تصلَ رَحمك إذا وصلَتْك وتقطعَها إذا قطعَتْك، فمن يَفعلُ ذلك لا يستحِقُّ اسمَ «واصل الرحمِ»، بل سمَّاه النبيُّ ﷺ بالمكافِئ، أي: الذي يكافِئُ بالوصلِ وَصلًا، وبالقطيعةِ قطيعةً، أما واصِلُ الرحمِ فهو مَن يَصِلُ رحمَه، سواء وصلتْه هذه الرحمُ أو قطعَتْه.. أقول: وصَلَتْه رَحِمُه أو قَطَعَتْه.

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٢٠٦٧) ومسلم في «صحيحه» (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو يَعلى في «مسنده» (٤١٠٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فإذا كانت أختُك أو خالتُك أو عمَّتُك أو أحدٌ مِن ذوي قُرباكِ قرَّرَ قطيعتَك زيارةً أو كلامًا فالشَّرعُ يُلزِمُك أن تعلوَ على هذا الموقفِ وعلى مَرارتِه وثِقَلِه على النَّفس، وأن تُبادِرَ بالذهابِ إليه أو محادثتِه بوسائلِ الاتصالِ، والسُّؤالِ عنه في المناسباتِ والأعيادِ، وإظهارِ مشاعرِ الوُدِّ والمعاملةِ الحسنةِ.. فهذه هي صلةُ الرَّحمِ التي أقسمَ اللَّهُ تعالى في حديثِه القدسيِّ: أن يَصِلَ مَن يَصِلُها ويقطعَ مَن يَقْطَعها[1]، ومعلومٌ أن صلةَ الرحمِ بهذه الضوابطِ الشَّرعيةِ قد تشُقُّ على كثيرينَ، ولكن مطلوبٌ في هذه الحالةِ إكراهُ النفسِ وتحمُّلُها مشقةَ بذلِ الوُدِّ لمن لا يريده.. وكيف لا، وقد حُفَّتِ الجنةُ بالمكارهِ، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات!

ويقول النبي ﷺ: **«ليس الواصِلُ بالمُكافِئِ، ولكنِ الواصِلُ الَّذي إذا قُطِعَت رَحِمُهُ وَصَلَها»**[2].

---

(١) فقد أخرج الحكيم التِّرمذيُّ في «نوادر الأصول» (٨٤٨) عن عبد اللَّه ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن رسول اللَّه ﷺ: «قال اللَّهُ -تبارَكَ وتَعالَى- للرَّحِمِ: خَلَقتُكِ بِيَدَيَّ، وشَقَقتُ لكِ من اسمِي، وقرَّبتُ مكانَكِ مِنِّي، وعِزَّتِي وجَلالِي! لأَصِلَنَّ مَن وَصَلَكِ، ولَأَقطَعَنَّ مَن قَطَعَكِ، ولا أَرضَى حتَّى تَرضَينَ».

(٢) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٥٩٩١) من عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

هل الأخُ الذي أغناه اللَّه يتَذكَّر أخاه أو أختَه وهو يجتمعُ بأولادِه على مائِدةِ طعامٍ تَكفي العَشراتِ، وأخوه أو أخته وأبوه وأمُّه يعيشون عيشةَ الكفاف؟

المشاهد الكريم!

يجبُ أن تُعوِّدَ نفسَك الصبرَ على جفاءِ رحمِك، وأن تُوصِلَ لهم حقوقَهم إن كانت لهم في ذمتِك حقوقٌ.. فقد روى أبو هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ[١]، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»[٢].

صدق رسول اللَّه ﷺ.. هذا، وباللَّه التوفيق.

❋ ❋ ❋

(١) هو الرَّماد الحارُّ الَّذي يُحمى ليُدفَن فيه الخبزُ ليَنضَج. ينظر: «النِّهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٤/ ٣٦١).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٥٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِرُّ الوالِدَين

حضرات السيِّدات والسَّادة!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

من أَخطرِ الموضوعاتِ وأهمِّها التي يجبُ التذكيرُ بها في شهرِ رمضانَ موضوعُ: «بِرِّ الوالدينِ» والتزامِ الأدبِ في معاملةِ الآباءِ والأمهاتِ، وما وردَ في التَّرغيبِ ببرِّ الوالدينِ والتَّحذيرِ من عقوقِهما من أحكامٍ شرعيَّةٍ واضحةٍ وصريحةٍ في القرآنِ الكريمِ والسنةِ النبويَّة المطهرةِ.

وأولُ ما يَلفِتُ نظرَ المسلمِ في شأنِ هذا الموضوعِ هو تكرارُ ورودِه في القرآنِ الكريمِ سبعَ مراتٍ في صورةِ توجيهاتٍ صريحةٍ:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

- ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

- ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

كما ورَدَ -أكثَرَ من مرَّةٍ- في صورةِ ثناءٍ على الأنبياءِ والمرسلين بما هم أهلُه من نُبْلِ الأخلاقِ الإنسانيةِ، وفي الذُّؤابةِ منها برُّ الوالدينِ؛ مثل قولِه تعالى في شأنِ سيدِنا يحيى -عليه السلام-: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ

ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢-١٥].

وفي قولِه تعالى حكايةً عن سيدِنا عيسى -عليه السلامُ- في معجزتِه التي تفرَّدَ القرآنُ الكريمُ بتسجيلِها وذِكرِها، وهي: كلامُه في المهدِ، وفي عُمْرٍ لا يَقدِرُ الأطفالُ فيه على النطقِ بالحروفِ، وذلك حين واجهَت السيدةُ مريمُ -عليها السلامُ- ما واجهت بعد ما اتَّهمُوها وسألُوها، وكانت قد أُمِرَت بالصيامِ عن الكلامِ، فأشارَت إليه -عليه السلامُ- وهي تنظرُ إليهم نظرةَ مَن يُحيلُ السؤالَ إليه -عليه السلامُ- وقدِ استنكروا ذلك منها، ولكن سرعانَ ما فاجأتهمُ المعجزةُ حين خاطبَهم -عليه السلامُ- بلسانٍ فصيحٍ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٢٩-٣٢].

وتدلُّ هذه الآياتُ مجتمعةً أنه سبحانَه فرضَ حقوقًا لأعضاءِ الأسرةِ، وجعلَ من أوجبِها وأعظمِها خطرًا حقوقَ

الآباءِ والأمهاتِ على الأبناءِ، كما تدلُّ على أنَّ مطالبةَ الأبناءِ بأداءِ هذه الحقوقِ لوالدَيهم ليست مجرَّدَ وصايا خُلقيةٍ خاليةٍ مِن أحكامٍ تكليفيةٍ يترتَّبُ عليه الثوابُ والعقابُ، أو لنَقُلْ: من وجوبٍ أو حرمةٍ، فالحقوقُ في هذه الآياتِ وإنْ وردَ بعضُها بصيغةِ «الوصايا»، إلا أنَّها في حقيقتِها أوامرُ ونَواهٍ تكليفيةٌ، يدلُّ على ذلك أنها وردتْ في القُرآنِ الكريمِ إمَّا تاليةً للأمرِ بعبادةِ اللَّه وتوحيدِه، وإما مقرونةً بما يجبُ لله تعالى على العبدِ من شكرٍ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وفي هذا الاقترانِ والتجاوُرِ بين التكاليفِ المتعلِّقةِ باللَّه تعالى: إيمانًا وعبادةً وشكرًا، وبين شُكرِ الوالدَيْنِ والإحسانِ إليهما- ما يدلُّ على عِظَمِ المسؤوليةِ وخطرِها في حياةِ المسلم، وأنَّها قضيةٌ لا يُقبلُ في الإبطاءِ بالوفاءِ بها تبريرٌ ولا اصطناعُ عللٍ أو معاذيرُ.

السادة المشاهدون!

إن التَّذلُّلَ أو خفضَ جناح الذلِّ للوالدَيْنِ هو أوَّلًا من باب سدادِ الدُّيونِ كما قُلنا، ثم هو خُلُقٌ من أخلاقِ الواجبِ والوفاءِ والمروءةِ، ومصدرُه الرحمةُ ورقةُ القلبِ واستقامةُ الضميرِ،

وإذا بذلَه الأبناءُ فإنما يبذلونَه طواعيةً واختيارًا؛ امتثالًا لأمرِه تعالى وتقرُّبًا إليه، لا تضطرُّهم إليه زُلفى ولا مصلحةٌ، ولا يشعرونَ معه بشيءٍ منَ الهوانِ أو النِّفاقِ أو المداهنةِ التي تَلحَقُ المُتذلِّلَ للناسِ من أجلِ الحاجةِ والمصلحةِ، سواءً أكان التذلُّلُ سجيَّةً في طبعِه، أم ممَّا ألجأتْه إليه خلائقُ الحِرصِ، وقديمًا قال العرب: «أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ».

السادةُ المشاهدون!

سَمِعنا مرارًا وتكرارًا الترغيبَ والترهيبَ في شأنِ «برِّ الوالدين» سواءً من آياتِ الكتابِ الكريمِ أم أحاديثِ النبيِّ ﷺ، وعرفنا أنَّ «برَّ الوالدينِ» من أفضلِ الأعمالِ قاطبةً بعد التوحيدِ وعبادةِ اللَّه، وأنه على قَدَمِ المساواةِ مع الصلاةِ والزكاةِ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم: ٣١، ٣٢].

وأنَّ عقوقَ الوالدينِ من أكبرِ الكبائرِ حتى لو كان العقوقُ بكلمةٍ غيرِ مهذَّبةٍ، أو كلمةٍ تعبِّرُ عن الضِّيقِ، مثل، «أُف»: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

والأبُ والأمُّ سواءٌ في وجوبِ برِّهما، وبعضُ الأئمَّةِ يرى استحقاقَ الأمِّ مزيدًا من البرِّ، للحديثِ الذي نحفظُه جميعًا: «أمُّكَ، ثمَّ أمُّكَ، ثمَّ أمُّكَ، ثمَّ أبوكَ»[1].

ومما يدل على خطر هذا الموضوع: أن بِرَّ الوالدينِ واجبٌ على الأبناءِ حتى لو كان الوالدانِ كافِرَيْنِ، ويَتأكَّدُ البرُّ في حالِ كِبَرِ الوالدينِ وضعفِهما أو مرضِهما، وهنا يجِبُ -وجوبًا حتميًّا- على الأبناءِ ألَّا يَضيقُوا ذَرْعًا بإقامةِ الأبِ والأمِّ مع أسرِهم، وألَّا يلجؤوا إلى وَضْعِ الأبوينِ في دُورِ المسنِّين، اللَّهم إلَّا للضروراتِ القُصوى؛ كعجزِ الأبناءِ عن رعايةِ الوالدَينِ أو تمريضِهم، فحُكمُ الأبناء في هذه الحالِ حُكمُ المضطرِّ، ولكن يَلزمُهم «البرُّ والإحسانُ» بهم، والحرصُ على زيارتِهم واستمرارِ التواصلِ معهم ما استطاعُوا إلى ذلك سبيلًا.

وعلى الزوجةِ ألا تَضِيقَ صدرًا بهذا الواجبِ الخُلقيِّ، وأن تُشَجِّعَ زوجَها على الوفاءِ به تجاه والدَيْه، وليَعْلَمَ الزوجانِ أنَّ

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٥٩٧١) ومسلم في «صحيحه» (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما يُقدمانِه في هذا الشَّأن يُدَّخَرُ لهما ويُجازيانِ به في الدنيا قبلَ الآخرةِ؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فشرٌّ، قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**بِرُّوا آباءَكُم تبَرَّكُم أبناؤُكُم، وعِفُّوا تَعِفَّ نِساؤُكُم**»[1].

هذا وباللَّهِ التَّوفيق، والسَّلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.



(١) أخرجه الحاكم بنحوه في «مستدركه»: ٤/ ١٥٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث صحيح الإسناد».

الحياءُ

أيها المشاهدون الكرام!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته؛

من الأخلاقِ الإسلاميَّةِ التي أجمعت الأديانُ السَّماويَّةُ على أهميَّتِها في استقامةِ المجتمعاتِ؛ خُلُق: «الحياء»، ذلك الخُلُق الذي يبدو الآنَ وكأنَّه آخِذٌ في التآكُلِ والتَّراجُعِ أمامَ سلوكيَّاتٍ غريبةٍ لا تعبأُ بالقِيَم الدينيَّةِ ولا تَحفِلُ بما فُطِرَ عليه النَّاسُ وما طُبِعَت عليه النُّفوسُ منذُ الأزلِ من خُلُقِ «الحياء» والأدبِ العامِّ، وتعملُ جاهدةً على تبديلِ خَلقِ اللَّهِ، حتى شاهَدنا الجُرأةَ على إتيانِ الفواحشِ والرَّذائلِ باسم «الحُرِّيَّة الشَّخصيَّة»، وأوشكَت حدودُ الفِطرةِ -وهي من حدود اللَّه تعالى- أن تندَثِرَ، وأوشكَت الفوارقُ بين الفضيلةِ والرَّذيلةِ أن تتلاشى في أذهانِ الكثيرِ والكثيراتِ من شبابِ اليوم.

وقد أصبحَ من المعتادِ أن يَسألَني البعضُ من أبنائِنا وبناتِنا أسئلةً تُقلق إلى حَدٍّ بعيدٍ، وتُشير إلى اختلاطِ المفاهيمِ في

أذهانِهم، بل تدلُّ على حالةٍ من التِّيهِ كادوا يَفْقِدُون معها الإحساسَ بقيمةِ «الحياء» والخَجل مِمَّا يجِبُ الخجلُ منه.

وقد ساعدَ على انتشارِ هذا التيَّارِ سهولةُ مُشاهدة المواد الإعلاميَّة، وسهولةُ استدعائِها والإخلادِ إليها، وسرعةُ التأثُّرِ بدعواتِها المسمُومةِ، مع غيابِ ثقافةٍ دينيَّةٍ تربويَّةٍ تنبُعُ مِن أخلاقِ الأديانِ، ومع ظهورِ تياراتٍ تدعو إلى اغترابِ الناسِ عن واقعِهم وعصرِهم، وتعجِزُ عن التَّكييفِ الشَّرعيِّ لِمَا استجدَّ في مجتمعِهم من قضايا ومشكلاتٍ.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ!

إنَّ الثَّقافةَ الإسلاميَّةَ، أو لِنقُل «التَّربية الإسلاميَّة» هي تربيةٌ علميَّةٌ عمليَّةٌ ذاتُ أُسُسٍ أخلاقيَّةٍ وحضاريَّةٍ شهد لها التاريخ..

هذه الثقافةُ كادت تتوارى في أروقةِ التَّعليمِ، ولم يَعُد جيلُ التَّلاميذِ أو الطُّلابِ اليومَ يتعرَّفون عليها فضلًا عن أن يسترشِدوا بها.

وذلك باستثناءِ التَّعليمِ في الأزهرِ الشَّريفِ وقِلَّة من دور التعليم ومحاضر العلم التي تُمَثِّلُ اليومَ المحميَّةَ الأخيرةَ من محميَّاتِ العِلمِ الإسلاميِّ الصَّحيحِ غيرِ الموجَّهِ وغيرِ

المُسيَّسِ، وغيرِ الموظَّفِ لتحقيقِ أغراضٍ بعيدةٍ عن هَدي الإسلامِ المؤسَّسِ على القُرآنِ والسُّنَّةِ. . وإذا كان لي من رجاءٍ -في هذا الموقف- فهو إلى حضراتِ السادَةِ الأفاضلِ: وُزراءِ وحكماءِ التَّربيةِ والتَّعليمِ، والتَّعليمِ العالي في العالَمين: العَربيِّ والإسلامي أن يُولوا اهتمامًا خاصًّا بقضيَّةِ التربيةِ الإسلاميَّةِ التي أوشكَت أن تُصبحَ أثرًا بعدَ عَيْن، في مدارسِنا وجامعاتِنا، وأن يُعادَ النَّظَرُ في استبدادِ المناهجِ الحديثةِ بتربية أبنائنا وتشكيلِ شخصيَّاتهم مع ما فيها من مجافاةٍ صريحةٍ للمبادئ والأخلاقِ التي دَرَجت عليها مجتمعاتُنا الشَّرقيَّةُ، ومع ما في التربيةِ الدينية المتأسِّسةِ على القرآن الكريم والكُتُبِ المقدَّسةِ من ثراءٍ معرفيٍّ ومِن تهذيبٍ للنَّفسِ وتثقيفٍ للعقولِ وتربيةٍ رياضيَّةٍ للأجسامِ، وقد رأيتُ في بلادِ ما وراء النَّهرِ مدارسَ نجحَت في تصميمِ مناهجَ رصينةٍ: علميَّةٍ وتربويَّةٍ تجمعُ بين هذه الأبعادِ في تناسُقٍ سَلِسٍ، وإعدادٍ متميِّزٍ؛ بغيةَ استعادةِ هُويَّةِ الأوطانِ التي عَدَت عليها عَوادي الاستلابِ الثَّقافيِّ والحضاريِّ الشَّرس.

السَّادة المشاهدون!

إنَّ «الحياءَ» خُلُقٌ ركَزهُ اللَّهُ في طبائِعِ البشرِ، وقد عرَّفه العلماءُ بتعريفاتٍ عِدَّة، يُمكن إيجازُها في القولِ بأنَّه: «تغيُّرٌ وانكسارٌ يعتري الإنسانَ من خوفِ ما يُعابُ به» وهو تغيُّر نفسيٌّ وجسميٌّ، يمنعُ من الإتيانِ بأفعالٍ تأباها الطَّبائِعُ البشريَّةُ بفِطرتِها وتَنفِرُ منها.

و«الحياءُ» من أقوى الأخلاقِ أصالةً وعُمقًا في مَشاعِرِ الإنسانِ، وآيةُ ذلك ظهورُه في سلوكِ الطِّفلِ في سَنواتِه الأولى، وشعورُه به قبلَ شعورِه بغريزةِ التَّديُّنِ، تأمَّل حالَ الطِّفلِ في سنواتِه الأولى: الثالثة أو الرابعة مثلًا تجِده يَستحي أن يكشِفَ عورتَه أمامَ النَّاسِ، ويَمتنِع عمَّن يطلُبُ ذلك منه، وهو إذ يتصرَّفُ هذا التصرُّفَ التِّلقائيَّ في هذه السِّنِّ المبكرة لا يدري ما الدِّينُ وما الإيمانُ، مما يدُلُّ على أنَّ الشُّعورَ بفطرةِ الحياءِ في الطفل يَسبِقُ الشُّعورَ بفطرةِ الدِّينِ، وإدراكَ معنى الأُلوهيَّةِ والنُّبوَّةِ والحياةِ الآخِرَةِ..

و«الحياءُ» شعبةٌ من شُعبِ الإيمانِ، كما أخبرَ النبي ﷺ، وهو من الصِّفات التي اتَّصفَ بها المولى عزَّ وجلَّ، كما في

حديث: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»[1].

و«الحياءُ» في المرأةِ أشدُّ حُسنًا وأبهى جمالًا، وقد امتدحَ اللَّهُ به ابنةَ النَّبيِّ شعيب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ [القصص: ٢٥].. وقد قَرَنَ النَّبيُّ ﷺ بينَه وبينَ الإيمانِ وقال: «**الحياءُ والإيمانُ قُرِنا جميعًا، فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفِعَ الآخَر**»[2].

السادة المشاهدون!

مِمَّا يجِبُ ملاحظتُه في موضوعِ «الحياء» إزالةُ اللَّبْسِ بين هذا الخُلق الإنسانيِّ الرَّاقي وبين الخَجَلِ والانطواءِ والخَوفِ من

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (١٤٨٨) والتِّرمذيُّ في «جامعه» (٣٥٥٦) وابن ماجه في «سننه» (٣٨٦٥) من حديث سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه»: ١/ ٢٢، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٧٣٣١) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما، وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرطهما».

وقد رُوي موقوفًا من قول عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما كما في «الأدب المفرد» (١٣١٣) وغيره.

مواجهةِ الآخرينَ، وأمراضِ التَّوحُّدِ المعروفةِ، فـ «الحياءُ» خُلُقٌ يقاوِمُ انتشارَ السُّلوكِ القَبيحِ، ويخلُقُ من صاحِبِه إنسانًا متوازنَ الفِكرِ والشُّعورِ والتَّصرُّفِ، وصاحبُ «الحياء» لا يهابُ النَّاسَ ولا يتحسَّبُ لمحاوراتِهم، ولا يمنعُه حياؤه من التخلُّقِ بخلق الشَّجاعةِ والإقدامِ، ومِن أن يكونَ رجلَ مجتمعٍ، أو سيِّدةَ مجتمعٍ من الطِّرازِ المتميِّزِ، وقد كانَ سيِّدُ الناسِ محمدٌ ﷺ نبيًّا ورسولًا وقائدَ دولةٍ وصانِعَ حضارةٍ تغنَّى بها التَّاريخُ، ومع ذلكَ كانَ أشدَّ حياءً من العَذراء في خِدرِها.

أيها المشاهدون الكرام!

«الحياء» خيرٌ كلُّه، وهو خُلُقُ الإسلامِ؛ والحياءُ مِن الإيمانِ، والإيمانُ في الجنَّة، والبَذَاءُ مِن الجَفَاءِ، والجَفَاءُ في النَّارِ، قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[١].

صدق رسول اللَّه ﷺ

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

---

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٦١٢٠) من حديث أبي مسعود البدريِّ رضي الله عنه.

العِفَّة

أيُّهَا السَّادة المشاهدين!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته؛

حديثُنا -اليَوْم-عن قيمة من قيم الأخلاق التي ينبني عليها استقرار المجتمعات: شُعُوبًا وحُكَّامًا ومسؤولين وأفرادًا ومؤسَّساتٍ. . هذه القيمة هي قيمة «العِفَّة»، وهي من القِيَم التي تحتاج إلى مُمَارَسةٍ وتدريبٍ وتحمُّلٍ؛ لأنَّها غير مطبوعةٍ في خلقةِ الإنسانِ وشُعورِه كالحياءِ مثلًا.

ومعنى العِفَّة: النَّزاهةُ والامتناعُ عن سؤال النَّاس، ويكثُر إطلاقُها على ضبطِ النَّفسِ ومنعِها، وبخاصَّةٍ فيما يتعلَّق بالأموال والغرائز والنَّزَوَات الحيوانيَّة الهابِطَة.

ومن ثمرات العِفَّة:

الاقتصادُ والتوفيرُ والقناعةُ، والاستغناء عمَّا زاد عن الضَّرورياتِ والحاجياتِ.

ومِن ثمَراتِها -أيضًا-تحريرُ المرء «رَجُلًا أو امرأة» من أَسْرِ الشَّهْوَة وسطوتها، وقديمًا قيل: «عَبْدُ الشَّهَوات أذلُّ من عبد الرِّق». .

والعفَّةُ المحمودَةُ لها شروط، من أهمها: أن يُصبح «التَّعفُّف» خُلُقًا يَصْدُر بصورةٍ تلقائيَّة سهلةٍ لا تَكلُّفَ فيها، وألَّا ينتظر المتعفِّفُ جزاءً ولا مصلحةً ولا نفعًا ماديًّا، وألَّا يكون تعفُّفه عن شيءٍ وسيلةً للحصولِ على شيءٍ أكبرَ منه، وألَّا يكون التعفُّف بسبب العجزِ وعدمِ القُدرةِ، أو يكون التعفُّف عن شيءٍ تجنُّبًا لضررٍ يترتَّبُ على ذلك الشَّيء، أو لأنَّ المتعفِّفَ ممنوعٌ من طلبِ ما يتعفَّفُ عنه، فكلُّ ذلك ليسَ من العِفَّةِ في شيءٍ؛ لأنَّ عناصِرَ الإرادةِ والعِزَّةِ والاعتِلاءِ مفقودةٌ في هذه الأمثلةِ وأضرابِها.

والعِفَّةُ فضيلةٌ تلازِمُها فضائِلُ عِدَّةٌ، في مُقدِّمتها: الاستغناءُ والاستعلاءُ المحمودُ كتعفُّفِ الفقيرِ واستغنائِه عمَّا في يَدِ النَّاسِ، وشعورِه بنديَّتِه لغيره، كما أخبر رسول اللَّه ﷺ: «**شرفُ المؤمِنِ صلاتُهُ بالليلِ، وعِزُّهُ استغناؤُهُ عمَّا في أيْدِي النَّاسِ**»[1] وفي الحكمة المأثورة: «أَحْسِن إلى مَن شِئتَ تكُن

(١) رواه الحاكم في «المستدرك»: ٤/ ٣٢٤، وقال هذا حديث =

أميرَه، واستَغنِ عمَّن شِئتَ تكُن نَظِيرَه، واحتَجْ إلى مَن شِئتَ تكُن أسيرَه»[1]، وقد قيل أيضًا: «اتَّقُوا عِزَّةَ المُستَغنِي».

ولكل هذه المعاني السَّامية أمر القرآنُ الكريمُ المسلمين بالتَّحلِّي بهذا الخُلُق في أكثر من موضع.. منها ثناؤه تعالى على الفُقَراء الذين يحجُزُهم «العَفاف» عن سؤال الناس والإلحاحِ في استجدائهم، وقد حثَّ اللَّه الأغنياءَ على الذَّهاب بأموالهم إلى هؤلاء العاجزينَ عن الكسبِ، من الذين لا يسألون النَّاس رغم حاجتهم، تَعَفُّفًا وأنفةً من ذل السؤال، حتى يحسبَهم مَن لم يَعرفهم أنَّهم أغنياءُ من فرَطِ عفَّتِهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، يقولُ علماءُ التَّفسيرِ: نزلت هذه الآية في أهل الصُّفَّة «وهم نحوٌ من أربعِ مئة رجل من الفقراء المهاجرين، لم تكن لهم

= صحيح الإسناد ووافقه الذهبي..

(١) راجع: «إحياء علوم الدِّين» (٣/ ٢٤٣).

مساكن في المدينةِ ولا عشائر، فكانوا في سقيفةِ مسجدِ المدينةِ، أوَّلِ مسجدٍ بُنِيَ في الإسلام، وكانوا يتعلَّمُون القُرآنَ باللَّيل ويعملون في تكسير النَّوى بالنَّهار»، وقد وقف رسول اللَّه ﷺ يَوْمًا عليهم ورأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم، فقال: «أَبْشِرُوا يَا أَصْحَابَ الصُّفَّةِ، فَمَن بقيَ مِن أُمَّتي عَلَى النَّعتِ الَّذي أنتُم عليْهِ رَاضِيًا بِمَا فِيهِ فإنَّهُ مِن رُفَقَائي يومَ القِيامةِ»[1]، كما أَمَرَ اللَّهُ أولياءَ اليتامَى من الأغنياء بالعِفَّةِ في التَّعامُل مع أموالهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦]، هذا ويُنزَّل المالُ العام مَنزلةَ مالِ اليَتيمِ، والمسؤولُ عنه منزلة وصي اليتيم، وكان عمر رضي الله عنه يقول: «إِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللَّهِ مَنْزِلَةَ مَالِ الْيَتِيمِ، إِنِ اسْتَغْنَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ، وَإِنِ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ، وإِذَا أَيْسَرتُ قَضَيْتُ»[2]، ومعنى «الاستغناء» في كلام عمر رضي الله عنه: عدم الحاجة، وليس الغنى

(١) أخرجه السُّلَميُّ في «الأربعين في التَّصوُّف»: ١، والخطيب البغداديُّ في «تاريخ بغداد» (١٥/ ٣٧٢) من حديث عبد اللَّه بن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣٣٥٨٥) والطَّبريُّ في «جامع البيان» (٦/ ٤١٢).

الذي نعرفه، وهو حيازة المال الكثير بدليل مقابلته بقوله بعد ذلك: «وَإِنِ افْتَقَرْتُ» أي: إن اضطرتني الحاجة وألجأتني للأكل من مال اليتيم، أكلتُ بالمعروف، وكذلك أَمَر اللَّه الشَّبابَ مِمَّن لا يستطيعونَ الزَّواجَ «بالعفة»، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

وفي هذه الآية يأمرُ اللَّه تعالى مَن لا تتوفَّر لديه تكاليفُ الزَّواجِ ونفقاتُه أن يستعفوا عن الزِّنا إلى أن يُوَسِّع اللَّه عليهم، والاستعفاف هو طلبُ العِفَّة، وتحصيلُ أسبابها، وترغيبُ النَّفس في الصَّبر على تحمُّلِ مشاقِّ «الشَّهْوَة»، فهي إلى حين، وقد وعد اللَّه هؤلاءِ الصَّابرينَ بتيسيرِ الأسبابِ، ووعدُه لا يتخلَّف، وقد لاحظنا ذلك كثيرًا رغم غلاءِ المهورِ، وسَفَهِ النَّفقات، ووضْعِ الأموالِ في غيرِ موضِعها الصَّحيحِ. . وكُلُّها عقباتٌ كأداء تضربُ عِفَّة الشَّباب في مقتل.

المشاهد الكريم!

إنَّ حاجةَ المسلمين اليوم إلى التخلُّق «بفضيلة العِفَّةِ»، تنبُع من كونِها أمرًا شرعيًّا وتوجيهًا ليس منه بُدٌّ لإصلاحِ ما فَسَد من

سلوكنا وتصرفاتِنا بسببِ الجَشَعِ وضعفِ النُّفوسِ، والجري وراءَ المالِ الحرامِ، وتفشِّي السَّرقةِ وهَتْكِ الأعراضِ وفسادِ الذِّمم وغيابِ الوعي بقِيَمِ التُّراثِ، والجهلِ بالثَّقافَةِ الإسلاميَّة الصَّحيحةِ التي علَّمت آباءَنا وأمهاتِنا وأجدادَنا وجداتِنا أنَّ الغِنَى الحقيقيَّ ليس هو كثرةَ المال وعَرَضِ الدُّنيا، وإنَّما هو: غِنَى النَّفْس.

هذا وباللَّه التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.



الإنصاف

(١)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

المشاهدونَ الكرام!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.. وبعد؛

من القِيمِ المفقودةِ في غِمارِ حياتِنا الماديةِ والعمليةِ اليوم قيمةُ «الإنصافِ»، التي باتت عملةً نادرةً في معاملاتِنا الحديثة، وأوشكَت أن تُحالَ لمستودَعِ الأخلاقِ القديمةِ، والتي يُنظرُ اليومَ لصاحبِها من منظورِ الدَّهَشِ والاستغرابِ، وكأنه قادمٌ منَ القرونِ الوسطَى، ويتعاملُ في الأسواقِ بعملةٍ مضى عليها الزمنُ، وطَمَرتْها الأعصرُ والدهورُ.

و«الإنصافُ» -باختصارٍ شديدٍ- هو: «العدلُ» مع النفسِ، ومع الغيرِ، وافقَك هذا الغيرُ أو خالفك، ومعناه في بابِ المعاملاتِ: أن تُعامِلَ الناسَ بمثل ما تحبُّ أن يعاملوكَ

به، مِثلًا بمِثلٍ، وتمامًا بتمامٍ، وأن تُعطيَهم حقوقَهم بمثلِ ما تطالبُهم به من إعطائِك حقَّك.

والإنصافُ -بهذا المعنى- هو معيارُ العدلِ، بل هو القسطاسُ المستقيمُ الذي يزِنُ به المرءُ معاملاتِه مع الناسِ، أخذًا وعطاءً في الجليلِ والحقيرِ من أصنافِ هذه المعاملاتِ.

وإذا كان الإنصافُ يستلزمُ فضيلةَ «العدالةِ» طردًا وعكسًا، فهذا يعني أنه كلما وُجِدَ الإنصافُ وُجِدَ العدلُ، وكلما انتفى العدلُ انتفى الإنصافُ، ولازمُ ذلك أن يكون الإنصافُ والعدلُ توأمَيْنِ متلاصقَيْنِ.

هذا وإنَّ أعلى درجاتِ الإنصافِ وأعظمَها أثرًا في دُنيا الناسِ هي درجةُ «الانتصافِ مِنَ النفسِ» أي: قدرةُ المرءِ على أن ينتصفَ لنفسِه من نفسِه، وبمعنًى أوضحَ: قدرتُه على أن يخاصِمَ نفسَه ويخطِّئَها ويُعاتبَها فيما أساءتْ فيه من قولٍ أو عملٍ..

ومواجهةُ النفسِ ومحاسبتُها ولومُها تتطلَّبُ قدرًا غيرَ قليلٍ من القوةِ والشَّجاعةِ والإيمانِ بمبدأ المساواةِ بين الناسِ الذي أرساه نبيُّ الإسلامِ ﷺ ورسَّخه في قولِه: «**النَّاسُ سَواسِيةٌ كأسنانِ المُشْطِ**»[1].

---

(١) أخرجه الدُّولابيُّ في «الكنى والأسماء» (٩٤٩) وابن حبَّان في =

ومنَ المعلومِ أن مَن يَعجِزُ عن مواجهةِ نفسِه والانتصافِ منها يَعجِزُ عن إنصافِ غيرِه منَ الناسِ من بابِ أولى، ففاقدُ الشَّيءِ لا يُعطيه كما يقولُ الحكماءُ..

وبسببٍ من غياب هذا الخُلُقِ العظيم انتشر في حياتنا المعاصرة هذا النوعُ من الذين يأخذونَ ولا يُعطونَ، ويُبصرونَ أخطاءَ الناس وتَقْذَى عيونُهم عن أخطاءِ غيرِهم، ويطلبون أن يُعتذرَ إليهم ولكن لا يعتذرونَ لأحدٍ، ويعترفونَ على الآخرينَ بينما يَعجِزونَ عنِ الاعترافِ على أنفسِهم، وهم حين يخطئونَ يُجهدونَ أنفسَهم في اختلاقِ المعاذيرِ والعِلَلِ التي تُسوِّغ لهم أخطاءَهم وجرائمَهم، وظُلمَهم للعباد: كِبرًا وغطرسةً وهروبًا من وَخزِ الضمير وتأنيبِه..

= «المجروحين»: ١/١٩٨، وأبو الشَّيخ في «أمثال الحديث» (١٦٨) وغيرهم، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.

وأخرجه ابن عَدِيٍّ في «الكامل»: ٥/١٩١، وأبو الشَّيخ في «أمثال الحديث» (١٦٦) والقُّضاعيُّ في «مسند الشِّهاب» (١٩٥) وغيرهم، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأخرجه أبو الشَّيخ في «أمثال الحديث» (١٦٧) من حديث عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه.

السادةُ المشاهدونَ:

إن الفائدةَ التي تعودُ على المجتمعِ من التعاملِ بمبدأ «الإنصافِ» هي اعترافُ المخطئِ بخطئِه فيما بينَه وبين نفسِه أولًا، ثم ما يتداعَى بعد ذلك منِ استعاذته باللَّهِ من الشَّيطانِ الرجيمِ، ومن طَلبِ المغفرةِ من اللَّه تعالَى والاعتذارِ للمتضرِّرِ من هذا الخطأ، مع قضائِه حقَّه إن ترتبَ على هذا الخطأ مظالمُ للعبادِ. . ومرةً أخرى إنَّه «المسلمُ القويُّ» الذي يُحاسِبُ نفسَه على خطئِها قبلَ أن يحاسِبَ الآخرينَ على أخطائِهم.

وهنا سؤالٌ يفرِضُ نفسَه: هل «الإنصافُ» في شريعةِ الإسلامِ هو أمرٌ مندوبٌ أو أمرٌ مفروضٌ؟

والإجابة هي أن «الإنصافَ» أمر مفروضٌ على كلِّ مسلمٍ؛ والقرآن والحديث مملوءانِ نهيًا ووعيدًا «للظالمِ»، والظُّلمُ - كما عرفْنَا- هو نقيضُ العدلِ، والعدلُ هو الإنصافِ. . .

والمسلمُ مأمورٌ بالإنصافِ والعدلِ مع المسلمِ ومع غيرِ المسلمِ، ومع صديقِه وعدوِّه سواءً بسواءٍ، يدلنا على ذلك قانونُ القرآنِ في قتالِ الأعداءِ المحاربينَ، وفيه أمر صريح

بالتقيُّدِ بمبدأ «العدالة» في قتالِ الأعداء، وعدمِ تجاوزِها إلى العدوانِ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠].

ولا يتَّسعُ المقامُ لسردِ النصوصِ في هذا الشَّأنِ، ولا شهاداتِ التاريخِ التي يَعلمُها أعداءُ الإسلامِ قبلَ أنصارِه، وكلُّها تصُبُّ في جملةٍ واحدة مكوَّنةٍ من مبتدأ وخبرٍ، هي: «الإسلامُ دينُ الإنسانيةِ» هذه الجملةُ التي اختارها أستاذٌ غربيٌّ مُنصِفٌ شغلَ مناصبَ هامةً في مبنى الأمم المتحدةِ في جنيف: الأستاذ/ مارسيل بوازار. ووضعَها عنوانًا لمؤلَّفِه القيِّمِ «الإسلامُ دينُ الإنسانيةِ» الذي صدرت ترجمتُه إلى العربية عام ١٩٨٠م. شكرًا لحسن استماعِكم.

هذا وباللَّه التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته



الإنصاف

(٢)

السَّادة المشاهدون!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته. . وبعد؛

فمِن غيرِ الإنصافِ أن يعرِضَ متحدِّثٌ لهذا الموضوعِ في الإسلامِ دونَ أن يتوقَّفَ قليلاً أو كثيرًا عند أحدِ مشاهدِ القرآنِ الكريمِ في إدانةِ المسلمِ وإنصافِ غريمِه، وأنا واحدٌ من هؤلاء الذين تأخذُهم الدَّهشةُ من جميعِ أقطارها، كُلَّما قرأتُ الآياتِ المتعلِّقةَ بهذه القِصَّةِ في «سورة النِّساء»، وتبلُغُ الدَّهشةُ ذروتَها حين نقرأُ في الآياتِ ما يُشبِهُ العِتابَ الإلهيَّ للنَّبي ﷺ في بعضِ مواقِفِ هذا المشهدِ، وكيفَ أنَّ تِسعَ آياتٍ بيِّناتٍ متتالياتٍ نزلت لإنصافِ يهوديٍّ مظلومٍ وإدانةِ مُسلمٍ خائنٍ، يقولُ علماءُ التَّفسيرِ في سببِ نزولِ هذه الآياتِ: إنَّ صحابيًّا على عهد النبيِّ ﷺ اسمه: طُعمةُ بنُ أُبيرِق، سَرَقَ دِرعًا مِن جارٍ

له اسمُه قتادةُ، وكانت الدِّرعُ في جرابِ دقيقٍ به ثُقبٌ، فأَخَذَ الدَّقيقُ يتناثَرُ على الطَّريقِ، وخَشيَ طُعمةُ أن يَفتضِحَ أمرُه إن هو ذَهَبَ به إلى مَنزله، وتفتَّقت حيلتُه عن التوجُّهِ به لصَديقٍ له يهوديٍّ اسمه: زيدُ بنُ السَّمينِ، وقالَ له: ضَع هذا أمانةً عندكَ، ولما تنبَّه قتادةُ وقومُه للدِّرعِ المسروقةِ، ذهبوا إلى طُعمةَ -ويبدو أنَّه كانَ معروفًا بالسَّرقةِ- فحَلَف لهم أنَّه ما أَخَذَها، وما لَه بها عِلمٌ، فتتبَّعوا أثرَ الدَّقيقِ حتى إذا ما انتَهى بهم إلى بيتِ زيدٍ اليهوديِّ، دَخَلوا عليه وقالوا له: أنتَ سرَقتَ الدِّرعَ. فأَقسَمَ باللَّهِ ما سَرَقتُه، وأنَّ طُعمةَ هو الذي جاءَ به.. وقالَ: ضَعْه أمانةً عندَك، فرَجعوا إلى طُعمةَ مرة أخرى وسأَلوه فأَقسَم لهم أنِّي ما سرقتُه، وأنَّ مَن سَرَقَكم هو زيدٌ اليهوديُّ، وشاعَ الأمرُ في النَّاسِ، وخشي طعمة وقبيلته من وصمهم بجريمة السرقة، فذَهب طُعمةُ وقبيلتُه إلى النَّبيِّ ﷺ ليَطلبوا منه تبرئتهم من السَّرقةِ، وأن يجادِلَ عنهم ليدفَعَ هذه الوصمةَ، وقالوا: إن لم تُدافِع عنَّا هَلَكنا وبَرِئَ اليهوديُّ.. فأرسل النبي ﷺ إلى زيدٍ اليهوديِّ، وسأله فأجابَه: واللَّهِ يا أبا القاسِمِ ما سَرَقتُ الدِّرعَ، ولكن

رماهُ عندي طُعمةُ كأمانةٍ، وأوشَكَ النَّبيُّ ﷺ أن يُصدِّقَ طُعمةَ وقَبيلَتَه، في دَعواهم أنَّ الذي سَرَقَ الدِّرعَ هو «زيدٌ» اليهوديُّ، وهَمَّ بعقابِ «زيدٍ» لولا أن نزلَ القرآنُ وبرَّأَ اليهوديَّ من تُهمةِ السَّرقةِ، ودمغَ طُعمةَ وأهلَه بالخيانةِ، وتوعَّدَهم بالعقابِ الأليمِ إنْ لم يتوبوا إلى اللَّهِ ويَستغفروه[1]..

أيها المشاهدون!

هذه هي قصة الآياتِ التي نقرأها في سورة النساء في قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ۝١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٠٦﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]، أي: استغفرِ اللَّهَ لما همَمتَ به من عقابِ اليهوديِّ ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ۝١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ

(١) أخرج قصَّة طُعمة بن أُبَيْرق رضي الله عنه الطَّبريُّ في «جامع البيان»: ٧/ ٤٦٢، عن قتادة مرسلًا. وأخرجها كذلك: ٢/ ٤٦٦، عن إسماعيل السُّدِّيِّ، مرسلًا.

ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء: ١٠٧- ١٠٩]، والآياتُ خطابٌ لجماعةِ من الأنصارِ، اشترَكوا في الدِّفاعِ عن طُعمةَ وعن المسلمينَ.

ومعنى الآياتِ: هَبوا أنَّكم خاصَمتُم عن طُعمةَ وقومِه في الدُّنيا فمَن يخاصِمُ عنهم في الآخِرَةِ إذا أخذَهم اللَّهُ بعذابِه.. ثمَّ يقولُ اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمًا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمًا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٍۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٠-١١٣]، انظر أيها المشاهد الكريم! تسعُ آياتٍ بيِّناتٍ تنزلُ على نبيِّ الإسلامِ في تبرئةِ يهوديٍّ مظلومٍ وإدانةِ مسلمٍ ظالمٍ، وتَعتِبُ عليه ﷺ مَيلَه

لتَصديقِ المسلمِ وتكذيبِ اليَهوديِّ، كُلُّ ذلكَ في جوٍّ كانت فيه أغلبيَّةُ اليهودِ تُناصِبُ الإسلامَ والمسلمينَ العَداءَ، وتتربَّصُ بهم وتُعينُ عليهم أهلَ الشِّركِ والوثنيَّةِ من قريشٍ. .

ولقَد صدَّقَ القُرآنُ على «طُعمةَ» بما يُشعِرُ بسوءِ الخاتمةِ والعَذابِ الأليمِ يوم القيامةِ. . فقيلَ: إنَّه هرَبَ إلى مكةَ، وسَرَقَ وارتَدَّ، ثُمَّ سرقَ وقُتِلَ في سَرِقَتِه الأخيرةِ.

المشاهدون الكرام!

هل أَدركتُم عظمةَ الإسلامِ في تطبيقِ مبدأِ العدلِ والإنصافِ حتى مع الكارهينَ للإسلامِ، وكيف أنَّ هذا المبدأَ لا مَفَرَّ منه لاستقرارِ المجتمعاتِ، وأساسٌ لشعورِ النَّاسِ بالهدوءِ والطُّمأنينةِ؟! وكيفَ أنَّ المسلِمَ وغيرَ المسلمِ سواءٌ في دينِ الإسلامِ، دينِ العدلِ والإنصافِ والمساواةِ بينَ بني آدمَ؟!



التواضُع

(١)

السادةُ المشاهدُونَ!

السلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته . .

حديثُنا اليومَ عن فضيلةِ «التواضعِ» وأثرِها القويِّ في تماسكِ المجتمعِ وثَباتِه واستقرارِه.

ونبدأُ حديثَنا عن هذه الفضيلةِ بخطابٍ صاغَه اللَّهُ تعالى على هيئةِ أوامرَ وجَّهها لنبيِّه ﷺ مُذكِّرًا إيَّاه أنه أُوتي سبعًا من المثاني -وهي الفاتحةُ[١]-، وأنه أُوتي القُرآنَ، ووصفَه بأنه عظيمٌ لما يتضمنُه من جميعِ ما يحتاجُ إليه البشرُ من أمورِ الدِّينِ والدنيا، وهذا العطاءُ لا يُقارَنُ به عطاءٌ آخَرُ مهما غلا ثمنُه وعلا شأنُه.

---

(١) ثبت ذلك في الحديث الَّذي أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه ؛ ففيه قال النَّبيُّ ﷺ : «الحمدُ للَّه ربِّ العالمين» هي السَّبعُ المَثاني، والقُرآنُ العظيمُ الَّذي أُوتيتُه».

لذلك نهَى اللَّهُ تعالى نبيَّه أن يَمُدَّ عينَيْه، ويُتبعَ بصرَه ما يتمتعُ به بعضُ الكافرين من نِعَمِ الدنيا التي أغدَقَها عليهم منَ المالِ والجاهِ والأولادِ وسعة العيش ورفاهيته، فإن كلَّ ذلك إلى زوالٍ وفناءٍ، طال العُمْرُ أو قَصُرَ، بل إن مصيبةَ الفقدِ والزوالِ لا تقفُ عند هذا الحدِّ، وإنما يتلوها ما هو أشدُّ وأعنفُ في سلسلةٍ لا تنتهي من سؤالٍ وحسابٍ وجزاءٍ وعقابٍ، ثم يعقُبُ هذا نهيُ اللَّه له أن يحزنَ على حالِ هؤلاءِ ومصيرِهم، وعنادِهم واستحبابِهمُ الكفرَ باللَّه تعالى على الإيمانِ به.. ثم يأتي التَّوجيهُ الإلهيُّ الحاسمُ وفيه يأمر اللَّه نبيه ﷺ بالتواضعِ للمؤمنين والرفقِ بهم، وأن يُلينَ لهم جانبَه، فهؤلاءِ هم أتباعُه والمؤمنونَ به.. ويهمُّنا في هذه الآية درسانِ:

الدرسُ الأولُ: أنَّ أهلَ الثراءِ والجاهِ والرفاهيةِ يسرع إليهم الكِبرُ أكثرَ من غيرِهم لتوفر أسبابه ودواعيه.

والدرسُ الثاني: هو أنَّ التواضعَ وخَفضَ الجناحِ ولينَ الجانبِ هو خُلُقٌ عظيمٌ، أمر اللَّهُ به نبيَّه ﷺ يقولُ اللَّه تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨].

وقد يُقال: لِمَ أمرَ اللَّهُ نبيَّه بالتواضعِ للمؤمنينَ خاصةً، ولم يأمُرْه بالتواضعِ مع غيرِهم؟ والجوابُ: أن التواضعَ لأهلِ الكفرِ والطغيانِ مَذَلَّةٌ وخُضوعٌ وانكسارٌ، ومَعاذَ اللَّه أن يأمُرَ برذيلةٍ من هذِه الرذائلِ اللاآدميَّةِ.

ويرد في سياق الموضوع ذاته قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وفي معناه أيضا: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، ومعنى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: لا تُشح بوجهك عن الناس كبرًا وإعراضا عنهم.

والتواضعُ -أيها السادةُ المشاهدونَ- هو الرِّفقُ ولِينُ الجانبِ؛ كما قلنا، وهو يستلزم السَّماحةَ في القولِ، والأدبَ في الفعلِ.. وليس التواضعُ مَذلَّةً ولا مَهانةً، والبُعدُ بينه وبين هاتينِ الرذيلتينِ هو بُعدُ ما بين المشرقِ والمغربِ؛ فالتواضعُ مرتبطٌ أشدَّ الارتباطِ وأوثقَه بفضائلَ

أخرى كالرحمةِ بالعبادِ، وخفضِ جناحِ الذلِّ لهم بالمعنى الذي سبقَ في حلقةِ «بر الوالدين»، والخشوعِ لله تعالى، والخضوعِ لعظمتِه وسُلطانِه، أما الذلُّ فهو بَذْلُ النفسِ وبيعُها في سوق الشَّهواتِ والأعراضِ، ويَتْبعُه الهوانُ والمهانةُ واعتيادُهما؛ قال الشَّاعرُ:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيهِ

ما لجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم

والسلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه..



التواضُع

(٢)

السادةُ المشاهدُونَ!

السلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته . .

الإخوةُ الكرامُ!

نستكمل كلامنا عن فضيلة التواضع فنقول:

هناك في شريعتِنا الإسلاميةِ -كما في شرائعِ الأديانِ كلِّها، وبخاصَّةٍ في موعظة سيدنا عيسى على الجبلِ- أحاديثُ كثيرةٌ تدورُ كلُّها حولَ معنى قولِه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ نختار من بينها حديثًا ذا دلالةٍ عميقةٍ في فضلِ «التواضعِ»، والدعوةِ إلى وجوبِ احترامِ الناسِ، وهو قولُه ﷺ: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بأَهلِ الجَنَّةِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لو أقْسَمَ علَى اللَّهِ لَأَبَرَّه، ألا أُخْبِرُكُمْ بأهلِ النارِ؟ قالوا: بلى، قالَ: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**»[١].

---

(١) متَّفَقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٤٩١٨) ومسلم في =

والضعيفُ المتضعِّفُ هو ما يَستضعِفُه الناسُ، أو هو رقيقُ القلبِ لَيِّنُ العريكةِ، ولكنَّه لو حَلَفَ يمينًا طَمَعًا في كرمِ اللَّه بإبرارِه لأَبَرَّه، وهو كنايةٌ عن أنَّه مُستجابُ الدعوةِ، أمَّا العُتلُّ: فهو الغليظُ الجافي، الشديدُ الخصومةِ، والجوَّاظُ: فيما يقول شُرَّاحُ الحديثِ هو: الجَموعُ المنوعُ، أي: الذي يَجمعُ المالَ، ويمنعُه عن مُستحقِّيه، ثم يَمشي مُختالًا بين الناسِ.. والمرادُ بأهلِ الجنةِ في الحديثِ أنَّ أغلبَهم من القسمِ الأولِ، كما أنَّ المرادَ بأهلِ النارِ أغلبُهم منَ القِسمِ الثاني.

ويَرِد في هذا المعنى دعاؤه ﷺ: **«اللَّهمَّ أحْيِني مِسكينًا، وأَمِتْني مِسكينًا، واحْشُرْني في زُمرةِ المساكينِ»**[(١)]، وقوله ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ أوحى إلَيَّ أنْ تواضَعُوا حتَّى لا يَبغِيَ أحَدٌ على أحَدٍ، ولا يفخَرَ أحَدٌ على أحَدٍ»**[(٢)]، وأيضًا: «مَا

= «صحيحه» (٢٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب الخُزاعيِّ رضي الله عنه.

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في «جامعه» (٢٣٥٢) من حديث أَنَس بن مالك رضي الله عنه، وقال: «حديث غريب». وأخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤١٢٦) من حديث أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٨٦٥) من حديث مطرِّف بن عبد اللَّه بن الشِّخِّير رضي الله عنه.

تواضَع أَحَدٌ للَّهِ إِلَّا رَفَعه»(١)، وقد خيَّر اللَّه تعالى نبيه بين أن يكون نبيًّا ملكًا، أو نبيًّا عبدًا فقال: «نبيًّا عَبْدًا» إلى آخِر ما ورد في شأن هذا الخُلُق الرفيع الذي يخلُقُ من المجتمع شعبًا قويًّا متماسكًا.

والتأسيس الفلسفي لخُلُق التواضعِ في الإسلام هو أنهُ يأتي نتيجةً حتميَّةً لمبدأُ «المساواةِ» الذي أصَّلَه اللَّهُ ورسولُه في القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ المشرَّفةِ، وكذا مبدأُ رجوعِ الناسِ جميعًا في أصلِهم إلى أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، فلماذا الاستكبارُ إذن بين المتساوينِ!

وهذا ما عَناه عمرُ رضي الله عنه -في صرختِه التاريخيَّة: «**مَتَى اسْتَعبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ ولَدَتْهُم أُمَّهاتُهُم أَحْرَارًا**»(٢).

السادةُ المشاهدُون!

مِنَ المؤلمِ أن نقولَ: إنَّ فضيلةَ التواضعِ -وكذلك فضيلةُ المساواةِ- في بلادِ غير المسلمينَ أظهرُ وأكثرُ انتشارًا منها في بلادِ المسلمينَ، وتحليلُ هذه الظاهرةِ وما تتَضمَّنُه من مُفارقاتٍ لا تحتملُه هذه الحلقاتُ.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن عبد الحَكَم في «فتوح مصر وأخبارها»: ١٨٣.

ففي هذه البلادِ غيرِ الإسلاميةِ -مثلًا- لا تجدُ هذا الحرصَ الشَّديدَ على ذِكرِ الألقابِ في كلِّ مرةٍ يُخاطَبُ فيها صاحبُ اللَّقبِ، وأنا هنا لا أتحدَّثُ عن دوائرَ خاصةٍ تقتضي طبيعةُ عملها الالتزامَ بتراتبيَّةِ الألقابِ المحدَّدةِ بلوائح وقوانين خاصة، ولكن أتحدَّثُ عن مخاطباتِنا العامةِ في الدواوينِ والوزاراتِ والجامعاتِ والمكاتبِ وغيرِها، وما تعودنا عليه من ضرورةِ اقترانِ الاسم باللقب مثل: «باشا، أو بيه، أو صاحبِ السعادةِ، أو صاحبِ المعالي، أو صاحبِ الفضيلةِ» أو غيرِها منَ الألقابِ التي خَيَّلتْ لأصحابها من فَرْطِ تكرارِها على مَسامِعِهم أنَّهم مُتميِّزون فعلًا على غيرهم، وأنهم ينتمونَ لطَبَقةٍ أعلى وأسمى منزلةً من طبقاتِ الآخَرينَ، وكثيرًا ما خُيِّلَ لأصحابِ هذه الألقابِ أنَّهم نُخبةٌ مُتميِّزةٌ، وأنَّ أبناءَهم ليسوا كبقيَّةِ أبناءِ الناسِ، ومن حقِّهم أن يَتميَّزوا باستثناءاتٍ في الوظائفِ والمناصبِ يسبقونَ بها أصحابَ الكفاءاتِ العليا من أبناءِ وبناتِ الطبقاتِ المغمورةِ في المجتمعِ، وأنَّ من حقِّهم أن يُورِّثُوا أبناءَهم وظائفَهم وكراسيَّهم التي يجلسون عليها.

وهذا السلوكُ الذي تشقى به شريحةٌ عريضةٌ منَ الشَّبابِ أساسُه التنكُّرُ لخُلُقِ «التواضعِ» ومبدأِ المساواةِ، والانزلاقُ -اللاشعوري المتدرِّجُ- في هاويةِ «الكِبْرِ والاستعلاء» والتصنيفُ الزَّائفُ للناسِ على أساسِ المالِ والجاهِ، وليسَ على أساسِ العملِ الصالحِ والخُلُق الحسَنِ.

السادةُ المشاهدون!

ليس مِنَ الإسلامِ ولا مِن مكارمِ الأخلاقِ «الترفُّعُ» على الفقراءِ، والتأفُّفُ من البسطاءِ، أو النظرةُ الدونيَّةُ لمن يعمَلُ في أعمالٍ أو حِرَفٍ متواضعةٍ، وليس منَ الإسلامِ ولا مِنَ التحضُّرِ ولا من مكارمِ الأخلاقِ تَصنيفُ العائلاتِ إلى طبقاتٍ، بعضُها فوق بعضٍ، وامتناعُ عائلاتٍ من تزويجِ بناتِها من عائلاتٍ أخرى كِبرًا وتعاليًا، والمسلمُ الحقيقيُّ أيها المشاهد الكريم هو مَن يقولُ: سمعًا وطاعةً لأمرِ النبيِّ ﷺ في قوله: «**إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَه وخُلُقَه فَزَوِّجُوه، إلَّا تَفْعَلُوا تكُنْ فِتْنَةٌ في الأَرْضِ وفَسَادٌ كَبيرٌ**»[1].

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في «جامعه» (١٠٨٤) وابن ماجه في «سننه» (١٩٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صدق رسولُ اللَّه ﷺ.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم

والسلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه.



حاجةُ المجتمَعاتِ إلى الفقراءِ والبُسطاءِ

السّادة المشاهدون:

يرتبِطُ بموضوعِ «التواضُعِ»، وهو موضوعٌ واسعُ الأطرافِ، موضوعٌ آخرُ هو منزلَةُ الفقراءِ، ومدى حاجةِ المُجتمعاتِ إليهِم، ودَورُهُم التاريخيُّ الكبيرُ في دعمِ الرسالاتِ الإلهيَّةِ والوقوفِ إلى جانبِ الأنبياءِ والمرسلينَ.

والتَّاريخُ يُثبتُ أن الفُقَراءَ كانوا أَذرُعَ الأنبياءِ وسواعدَهُم القويةَ في نشرِ الدعوةِ إلى اللَّهِ تعالى، وهِدَايَةِ الناسِ إلى الحقِّ والخيرِ والجمالِ.. كما يُثبِتُ أن الترفُّعَ عليهم والأنفةَ منهم كثيرًا ما مثَّل عقبةً كأْداءَ صدَّتْ المستكبرين، وأَعمَت أبصارَهم وبصائِرَهُم حتى استحبُّوا الكفرَ على الإيمانِ.

انظر إلى الوجهاءِ مِن قوم نوح -عليه السلام- وما أبدَوهُ مِن عُذرٍ في رَفضِهم وتمرُّدِهم على دَعوته قالوا له: كيف نُصَدِّقُك في دَعوتِك وقد اتَّبعكَ سِفْلَةُ النَّاسِ، وأراذِلُهُم وخِساسُهم مِن المساكينِ الذين ليسَ لهم مالٌ ولا عِزٌّ ولا

جاهٌ، وإنَّا إذا اتَّبعناكَ صِرنا مثلَهم، وحُسِبنا عليهم، ثم كيف نتَّبِعُك ومِنهم مَن يعملُ في المِهَن المتواضِعَةِ في مَنطِقِ الأعراف والتَّقاليدِ، وكان ردُّهُ عليه السَّلام: إني لا أعلَمُ حِرفَتَهم ولا أعمالَهُم، ولم أُكَلَّف بذلك، وإنَّما كلَّفني ربِّي أن أدعوَهم إليه وقد أجابوني، وما حِسابهُم وحِسابي إلَّا على الذي خلقني وخلقَهم، وإنكم لو عَلِمتُم ما قلتُه لكم حقَّ العلمِ ما عبتُم عليهم حِرَفَهم وصنائعَهم، ثم يَحسِمُ نوحٌ عليه السلامُ حِوارَه مع هؤلاءِ المتكبِّرينَ بإعلانِ أنه لا يستطيعُ طَرْدَ هؤلاءِ الذين تأنفونَ من مخالطتِهم فما أنا إلا نذيرٌ يحذِّرُ من معصية اللَّه ويدعُو إلى طاعتِه، وانتهى حوارُهم معه بتوعدِه بالرجمِ إن هو أصرَّ على موقفِه هذا ولم يتراجَعْ عنه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن

لَمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١١٧].

وقد واجَه نبيُّ الإسلامِ -صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه- نفسَ الموقفِ مع كفَّارِ قريشٍ، وتعاملُوا معه بالمعاملةِ ذاتِها.. فكانوا يتأفَّفونَ من الجلوسِ مع صحابةِ رسولِ اللَّه ﷺ، وكان أكثرُ صحابتِه -كما نعلمُ- من الفقراءِ والفقيراتِ، وقد سألَه أعيانُ قريشٍ أن يطرُدَ من مجلسِه هؤلاءِ العبيدَ والبائسينَ؛ ومنهم: سلمانُ وخبَّابٌ وبلالٌ وعمَّارٌ وغيرُهم من ضعفاء المسلمين، وكان بعضُ هؤلاءِ يلبسونَ جِبابَ الصوفِ، وتفوحُ من أثوابِهم رائحةُ العَرَقِ، فقالُوا له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «لو طرَدْتَ عنَّا هؤلاءِ الأعبُدَ، أي: العبيدَ، وأرحْتَنا من روائحِ جِبابِهم لجلسنا إليكَ وحادثناكَ»[(١)].

وقال آخرون: «لو نَحَّيْتَ هؤلاء عنك حتَّى نَخْلُوَ بك، فإنَّ وفودَ العرب تأتيك فنستحي أن يرونا مع هؤلاء الأعبد، ثم إذا انصرفنا فإن شئت فأعدهم إلى مجلسك»، وهمَّ النبي ﷺ أن يجيبهم لطلبهم طمعًا في إسلامهم، فنزلَ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا

(١) أخرجه الطَّبريُّ في «جامع البيان»: ١٥/ ٢٤٠، من حديث سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه.

عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢]. وفي هذه الآية نهيٌ صريحٌ للنبي ﷺ عن إجابة المشركين لطلبِهم، وفيها تحذير منَ الوقوع في «الظلم» إن هو فعلَ ذلك، وفيها تذكير بأن هؤلاء العبيد يدعون ربهم صباحًا ومساءًا ويعبدونه طلبًا لوجهه الكريم، وليس لشيء آخر من أغراض الدنيا. . وأنت -أيها النبي- لست مسؤولًا عنهم ولا هم مسؤولون عنك. .

وفي السياق نفسه نقرأ توجيهًا مشابهًا تمام المشابهة من توجيهات اللّه تعالى لنبيه في الموضوع ذاته وهو قوله سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وفي هذه الآية -أيضًا- أمرٌ صريحٌ للنبيِّ ﷺ بأن يَحبِسَ نفسَه مع هؤلاء الذين يعبدونَ ربَّهم بالغداةِ والعشي، يريدونَ بعبادتِهم وجهَه تعالى لا شيئًا آخر من متاعِ الدنيا، وأن يَصبِرَ على هذا الحبسِ، وألَّا تتحوَّلَ عيناه عنهم إلى غيرِهم، ويتركَ مجالسَهم إلى مجالسِ أصحابِ الجاهِ والمالِ من أبناءِ الدنيا الذاهلين عن الآخرةِ، وألَّا يتَّبعَ أهواء الغافلين عن ذِكرِ اللّه ممن اتبعُوا أهواءَهم وأسرفوا في ضلالِهم.

الإخوةُ المشاهدونَ!

إن الدرسَ الذي ينبغي أن نُفيدَه من هذه الجولةِ السريعةِ مع كتابِ اللَّه وتوجيهاتِه لنبيِّه ﷺ هو أنه لا يصحُّ أن نُقيِّمَ الناسَ على أساسٍ من أشكالهم ومظاهرِهم وإمكاناتِهم الماديةِ، فكلُّ هذه شكلياتٌ لا دخلَ لها في التعرُّفِ على قدر الإنسانِ لا من قريب ولا من بعيد، وأنَّ المعيارَ الوحيدَ الذي يُكرم به المرءُ أو يُهان هو: العملُ الصالح، وأنَّ قيمةَ الإنسانِ معلَّقةٌ بفائدتِه وأثرِه الطيب في نفسِه وفيمَن حوله، وهؤلاء الذين يُنظر إليهم وكأنَّهم من الدرجةِ الثانية هم أصحابُ فضلٍ قديمٍ على البشرية جمعاءَ، ويكفيهم شرفًا أنهم كانوا جنودَ الأنبياء والمرسلين في رسالاتِهم التي أنقذتِ البشريةَ من الضلالِ وأخرجتْها من الظلماتِ إلى النورِ.

وأختمُ كلمتي هذه بقصةٍ مختصرةٍ هي ما ترويه كتبُ الحديث والسيرةِ والتاريخِ من أن النبيَّ ﷺ أرسل إلى هرقلَ عظيم الرومِ رسالةً يدعوه فيها إلى الإسلام، وكان هرقل بالشَّام حين وصلته الرسالة، واتَّفَق أنْ كان «أبو سفيان» على رأس قافلةٍ تجارية بالشَّامِ أيضاً، فدعاه هرقل ودعا معه

مجموعة من كبار قريشٍ وأجلسهُ أمامه، وأجلس جماعته عند ظهره ثم قال لترجمانه قل لهم إني سائل هذا الرجل عن هذا النبي وقال لهم: فإن كَذَبَنِي (أي: كذَب عليَّ) فكَذِّبوه.. وبدأ الملك يسأل أبا سفيانَ عن النبي ﷺ وأبو سفيان يُجيبُ، وكان من أسئلة الملك لأبي سفيان: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فأجاب أبو سفيان: بل ضعفاؤُهم، فقال الملك: وهكذا أتباع الرسلِ.

ثم قال لأبي سفيان: «لئن كان ما تقوله حقًّا فهو نبيٌّ.. وسيملك موضع قدميَّ هاتين»[1]، أي أرضَ الشَّام. ولم تمضِ سنواتٌ قلائلُ حتى دخلَ الإسلامُ الشَّامَ.. وصدقَت فراسةُ الملكِ..

هذا وباللَّه التوفيق

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعِكُم

والسلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٧) ومسلم في «صحيحه» (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه.

الكِبْر

(١)

السَّادَةُ المشَاهِدُون!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

حديثُنا الليلةَ عن «الكِبْر» و«المتكبرين»، وهو ليسَ بالطَّبعِ من بابِ الفضيلةِ ولا مكارِمِ الأخلاقِ.. ولا يُقالُ إنَّ هذه الحلْقاتِ مخصَّصَةٌ للحديثِ عن فضائِلِ الأخلاقِ فلا مَكانَ فيها للحديثِ عن الرَّذائِلِ؛ لأنَّا نقولُ: إنَّ تصوُّرَ فضيلةِ «التَّواضُعِ» يستدعي -ذِهنًا- تصورَ رذيلةِ الكِبرِ، ويستدعيه استدعاءَ الضِّدِّ للضِّدِّ..

وطَلبَةُ العِلم يعرفون من عِلمِ المعاني أن «التَّضاد» وأشباهَه يُعَدُّ من الجوامِعِ الحقيقيَّةِ؛ لأنَّ «الوَهم» يُنزِّلُ المتضادَّيْنِ منزلةَ المتضايفَينِ، حتى قالوا: «إنَّ الضِّدَّ أقربُ خطورًا بالبالِ مع الضِّدِّ من الأمثالِ».

ومِن ثَمَّ فمِن المشروعِ أن يعقُب الحديثَ عن التَّواضُعِ حديثٌ عن الكبرِ؛ إذ هما نقيضانِ أو في قوةِ النَّقيضَينِ كما يقولُ علماءُ المنطِقِ. .

وقد سمِعتُم وسَمِعنا مَعكم الكثيرَ ممَّا يقالُ في «الكِبرِ» و«المتكبِّرين». . .

وما يُمكِنُ تلخيصُه في هذه الحَلقةِ هو المبادرةُ بإدراكِ الفَرقِ بين «الكِبرِ» كرذيلةٍ من أشدِّ الرَّذائِلِ ضَررًا على الفَردِ والمجتمعِ، وبينَ ما يَشتبِهُ به -شَكلًا- من المطالب التي لا حَرَجَ ولا بأسَ في فعلها او تركها. .

ف«الكِبرُ» هو -كما قالَ النَّبيُّ ﷺ- «**بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»، ومعنى هذه العِبارةِ: أنَّ المتكبِّرَ هو مَن لا يَقبَلُ الحقَّ، وإنَّما يَرفُضُه ويتعالَى عليه، ومعنى «غَمط النَّاسِ»: احتقارُهم وازدِراؤهم والنَّظرُ إليهم من أعلى، وهو أيضًا: استعظامُ النَّفسِ، والإحساسُ بأنَّ قَدْرَها فوقَ أقدارِ الآخَرينَ. . وهذا كُلُّه شيءٌ، ومَيلُ الإنسانِ إلى الهيئةِ الحَسنةِ والملبَسِ الجميلِ والمنزِلِ النَّظيفِ، وكلِّ مطالبِ الجمالِ الوَقورِ في الرَّجُلِ والمرأةِ شيءٌ آخرُ. . وقد التبَسَ

الفَرقُ بينَ هذينِ الأمرينِ عندَ أحدِ الصَّحابةِ، وداخَلَه من ذلك شيءٌ في نفسِه حينَ سمِعَ النبيَّ -ﷺ- يقول: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، فقال للنبي ﷺ إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكونَ ثَوْبُه حَسَنًا ونَعْلُه حَسَنًا؟ فقالَ -عليه الصلاة والسلام-: «**إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ**»[١]..

نَعَم «الكِبْر» خَصلتانِ: التَّرفُّعُ عن قبولِ الحَقِّ واحتقارُ الناسِ.. و«المتكبِّرُ» لا يَقبَلُ الحَقَّ؛ لأنَّ قبولَه يَستلزِمُ خضوعَ نَفْسِه للحَقِّ، وهذا أمرٌ يصعُبُ على نَفْسِ المتكبِّرِ، التي تأبَى الخُضوعَ والانقيادَ، واعتادَت الاستعلاءَ والغَطرسَةَ.. وإذن فخليقةُ الكِبرِ بكلِّ قبائحها من وادٍ، وما يُظنُّ أنَّه كِبرٌ من حِرصٍ على الهيئَةِ الحسنةِ والثوبِ الحَسَنِ وما إليها من وادٍ آخَرَ مختلِفٍ أشدَّ الاختلافِ..

ويَلفِتُ أنظارَنا -أيُّها السَّادةُ المشاهِدون- أنَّ التَّحذيرَ من «الكبر» و«المتكبرين» والمتغطرسينَ ومِن أستاذِهم الأكبرِ -

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٩١) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

إبليس- وَرَد فيما يُناهِزُ سِتِّينَ مَوضِعًا في القرآنِ الكريم، وكُلُّها مواضِعُ ذَمٍّ وتقريع؛ ولوم وتوعُّدٍ بالعذابِ الأليمِ في جهنَّمَ.. وليسَ ببعيدٍ ما يُقالُ مِن أنَّ أوَّلَ معصيةٍ للهِ تعالى ارتُكِبَت كانت بسببِ الكِبرِ، وأن كُلَّ ما تلاها مِن مَعاصي البشر وآثامهم سببُه هذه الرَّذيلةُ..

يقُصُّ علينا القُرآنُ الكريمُ أنَّ اللَّهَ تعالى أَمَرَ الملائكةَ ومعهم «إبليس» بأَن يَسجُدوا لآدمَ بعدَ أنَ يُسوِّيَه ويَنفُخَ فيه مِن رُوحِه، وقد نفَّذ الملائكةُ كلُّهم ما أَمَرَهمُ اللَّهُ به، إلَّا إبليس الذي أَبى عليه «الكبرُ» والتَّرفُّعُ أن يُنَفِّذَ الأمرَ بالسُّجودِ، محتجًّا بأنَّه أرفعُ مِن آدمَ، ولا يَصِحُّ في عُرفِ أهلِ الكِبرِ أن يسجُدوا لـمَن هو أقلُّ شأنًا في نَظَرِهم.. وكانت حجة إبليس أنه مخلوقٌ من نارٍ، وآدمُ من طِين، وجهل أن الكل جماد لا تفاضُل فيه في باب الحاجة والضرورة.. وبقيَّةُ القِصَّةِ معلومةٌ، والدَّرسُ الذي يُستنبَطُ من هذه القصة في القرآن: أنَّ الكِبرَ منعَ صاحِبَه من تنفيذِ أمرِ اللَّه، فاستوجَبَ بسببِه اللعنةَ، واستحقَّ الطَّردَ من الجَنَّةِ..

والذي لا يَنتبهُ له كثيرونَ هو أن إبليسَ لم يستشعِرِ النَّدمَ مع

هذا العقابِ الإلهيِّ، ولم يخطِّئْ نفسَه، ولم يسأَلِ اللَّهَ العفوَ والمغفرةَ كما فعلَ أبو البشرِ، وإنَّما حمَلَه كبرُه وغرورُه على الإصرارِ على موقفِه، فطلبَ من اللَّه تعالى أن يُمهِلَه ليتفرَّغَ لإضلالِ العبادِ وإغوائِهم بتزيينِ المعاصِي والآثامِ والذنوبِ وتشجيعهم على اقترافها..

ومعنى ذلك أنَّ معاصيَ البشرِ قاطبةً -وجميعُها من وحيِ الشَّيطانِ- إنَّما هي نِتاجُ رذيلةِ الكِبرِ، وأنَّ قوةَ الشَّرِّ في العالم أساسُها التكبر والاستعلاء على اللَّه في الأزلِ، وأنَّ أصحابَ المعاصي والآثامِ والسَّيِّئاتِ، والظلمةَ والمستكبرينَ هم أنصارُ إبليسَ وأعوانُه ومشجِّعوه على متابعةِ مسيرتِه التي انطلقَت مِن تكَبُّرِه واستعلائِه:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾

قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧١- ٧٨].

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١١ - ١٣].

ولا يذهبنَّ بنا الظنُّ إلى أنَّ الأثرَ التَّدميريَّ لرَذيلةِ الكِبرِ قاصِرٌ على ما يَقعُ بين الأفرادِ، فهذا ظنٌّ غيرُ صحيحٍ، والصَّحيحُ أن هذا المرضَ الخُلُقيَّ التدميريَّ كما يُصيبُ الأفرادَ يُصيبُ الدولَ والشُّعوبَ سواءً بسواءٍ، وحالتئذٍ تكونُ الدماءُ والأشلاءُ وخرابُ الديارِ والتشريدُ من أشنعِ ما تمارسُه الدولُ المستكبرةُ على الدولِ الناميةِ، دع عنك الفقرَ والجهلَ وما إليهما مما يَلحقُ الشعوبَ الفقيرةَ من استبدادِ السياساتِ الجائرةِ وتسلُّطِها على مقدَّراتِ البلادِ والعبادِ.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم. .

والسلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه.

الكِــبْرْ

(٢)

أيُّها السَّادةُ المشاهدُونَ!

نستكمِل ما شرعنا فيه أمس من الكلام عن آفة الكبر فنقول:

إن خَليقةَ الكبرِ كانت تمثِّلُ عقبةً كأْداءَ وصعوبةً بالغةً أمام الأنبياءِ والمرسلينَ في دعوتِهم إلى اللَّه تعالَى، وقد سجَّلَ القرآنُ الكريمُ عِنادَ أقوامِهم وضلالَهم بسببِ كبريائِهم.. حدث ذلكَ مع قوم نوحٍ، وثمودَ وعاد، وقوم شعيبٍ وموسى وعيسى ومحمَّدٍ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ:

- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨، ٣٩].

ونقول أيضًا: إنَّ الكِبرَ وما اشتق منه؛ مثل: «استكبروا، واستكبرتم، يستكبر، ويستكبرون، والمتكبرين»، قد ورد في معرضِ الذَّمِّ والوعيدِ في خمسينَ موضِعًا من القرآنِ الكريمِ على الأقلِّ، وهذا دليلٌ على خطورةِ هذا المرضِ الخُلقيِّ اللَّعينِ، الذي يُصيبُ المجتمعاتِ ويهدِمُها..

والكِبرُ من أسرعِ الرَّذائِلِ إفسادًا في الأرضِ، ومن أشدِّها فَتكاً بالمجتمعات..

هذا ويجبُ التنبُّهُ الى أنَّ أسوأَ أنواعِ الكِبر؛ كِبرُ بعضِ العُلَمَاء ممَّن يَتيهونَ بعلمِهم، ويزيِّنُ لهم أنَّهم حراسُ المعرفةِ وسَدَنةُ الموضوعيَّةِ وحريَّةِ الرأي، ولا يجدون حرجًا في أن يخلِطوا الحقائِقَ بالسَّفسطةِ والأغاليطِ إمَّا عن جهلٍ وإما عن رغبةٍ في إضلالِ النَّاسِ..

ومما يزيد الطين بلةً أنَّ كثيرًا من النَّاسِ يَحسبونهم مِن العُلماءِ الذين يُبلِّغونَ رِسالاتِ اللَّهِ ويَخشونَه ولا يَخشونَ أحدًا إلَّا اللَّهَ . .

وهذا النَّوعُ من العُلماءِ يَجهَلُ أو يَتجاهَلُ تحذيرَ النبي ﷺ من عاقبةِ السُوءِ التي تنتظرهم وتنتظرُ أمثالَهم . .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِعِلْمُهُ**»[1]، وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَفْزَعُ لَهُ أَهْلُ النَّارِ فَيَجْتَمِعُونَ لَهُ فَيَقُولُونَ لَهُ: يَا فُلَانُ، مَا لَقِيتَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا أَنْتَهِي**»[2].

---

(١) أخرجه أبو بكر الآجرِّيُّ في «أخلاق العلماء»: ٨٦، والطَّبرانيُّ في «المعجم الصَّغير» (٥٠٧) والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (١٦٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٣٢٦٧) ومسلم في «صحيحه» (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

ومن أنواع الكبر: الكبرُ بالحسَبِ والنَّسَبِ، وهو مرفوضٌ في ميزانِ الإسلامِ، لأنَّه يكرِّس طبقيَّةً بغيضةً يمقُتها الإسلامُ ويرفُضُها رفضًا قاطعًا، فالفخر بالأنساب جهلٌ وتقهقر إلى العصورِ الغابرة؛ ثم إنه اعتزازٌ بما ليسَ من عملِه وكسبِ يدِه، ولله درُّ الشَّاعر في قوله وهو يخاطِبُ هؤلاءِ الذين يُحبُّونَ أن يُحمدوا بما لم يفعلوا:

لَئِن فَخَرتَ بآباءٍ ذَوِي نَسَبٍ

لقد صَدَقتَ ولكن بِئْسَ ما وَلَدُوا

أيها المشاهدون الكرام!

يطول بنا الحديثُ عن أنواع الكبرِ، الجلِيّ منها والخفِيّ، فمنها: الكبرُ بكثرةِ العبادةِ أو بالجمالِ، أو بالمالِ، أو بالصِّحَّةِ، والقائمةُ تطولُ.

ولكن نَختَتِمُ حَلقَتَنا ببيانِ أنَّ أهلَ الكِبرِ هم رموزُ الشَّرِّ في هذا الكونِ، وأنَّهم تلامِذةُ إبليس رائدِ المتكبِّرينَ وقائدِهم إلى جهنَّم..

هذا ومن المستكبِرينَ على اللَّهِ؛ الملحدونَ الذي يأنَفونَ من عبادتِه سبحانه، ويعتقِدون أنَّ الاعترافَ بألوهيَّتِه تعالى

تأخُّرٌ وظلامٌ ورجعيَّةٌ، وأن مثل هذه الاعتقاداتِ لا تليقُ بعقولِهم الحداثيَّةِ المتطوِّرةِ والمتحضِّرةِ، فإلحادُهم نابعٌ من «كبرٍ» في نفوسِهم وفي عقولِهم.

وفي الختام نسألُ اللَّه أن يعيذَنا من الكِبرِ والتَّعاظُمِ والخُيلاءِ، وسيِّئاتِ أعمالِنا..

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعِكُم.

والسَّلام عليكُم ورحمةُ اللَّه وبركاته.



العَدْل

(١)

السَّادة المشاهدون!

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته. . وبعد؛

من القِيمِ التي نفتقدُها -اليوم- في مجتمعاتِنا، قيمةُ «العدلِ» في معاملاتِنا وتصرفاتِنا العاديَّةِ.

و«العدلُ» باختصارٍ شديدٍ: هو الأمرُ المتوسِّطُ بين الإفراطِ والتَّفريطِ، ومن لوازمِه: القسطُ والمساواةُ بين الناسِ في الحكمِ. .

و«العدلُ» اسمٌ من أسماءِ اللَّه تعالى، وبه قامتِ السمواتُ والأرضُ وبُنِيَتْ عليه كلُّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في مخلوقاتِ اللَّهِ تعالى، وقد ذُكِرَ في القرآنِ الكريمِ في أكثرَ من عشرين آيةً، إظهارًا لأهميتِه وضرورتِه.

وصفةُ «العدلِ» من أوجبِ الصفاتِ التزامًا وتطبيقًا في جميع مناحي الحياةِ؛ فهي معيارٌ أو ميزانٌ يزنُ الأمورَ

كلِّها، وإذا دَرَجنا مع القائلينَ بأنَّ الحياةَ ليسَتْ إلَّا سلسلةً لا تنتهي من الاختيارِ بين أمريْنِ- تَبيَّنَ لنا خطرُ «العدلِ والعدالةِ» في جميعِ ما يصحُّ فيه هذا المعنى، و«العدلُ» يستلزمُ «الإنصافَ»، كما يستلزمُ «المروءةَ والاستقامةَ» والترفعَ عن صغائرِ الأمورِ وسَفْسَافِها.

وقد وعظَ اللَّهُ به عبادَه وعظًا صريحًا في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

والعدلُ في الآيةِ كما يقولُ علماءُ التفسيرِ هو: الإنصافُ بين الناسِ، والتعاملُ معهم باعتدالٍ لا مَيْلَ فيه ولا عِوَجَ.

وقد وُصِفَتْ هذه الآيةُ بأنها أجمعُ آيةٍ في كتابِ اللَّه للخيرِ والشرِّ، كما قال عنها القاضِي البيضاويُّ أحدُ عمالقةِ علمِ التفسيرِ[١]: «لو لَمْ يَكُن في القُرآنِ غيرُ هذه الآيةِ لصدقَ عليه أنه تِبيانٌ لكلِّ شيءٍ ورحمةٌ للعالمينَ»، وذلك لِمَا اشتملَت عليه من الأمرِ بالعدلِ والإحسانِ وصلةِ القربى،

---

(١) «تفسير البيضاوي»: ٣/ ٢٣٨.

والنهيِ عن الفحشاءِ والمنكرِ، ومنها يتبيَّنُ أن العدلَ أولُ الأركانِ في استقرارِ الحياةِ وانضباطِها على شريعةِ اللَّه.. ومن هنا قيل: «العدلُ أساس المُلكِ».

وقد أمر اللَّهُ تعالى نبيَّه أن يلتزمَ جادةَ «العدلِ» في المعاملةِ بين الناسِ، وذلك في قولِه تعالَى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: ١٥].

وقد أمر اللَّهُ المؤمنينَ بما أمر به نبيَّه عليه الصلاةُ والسلامُ من إقامة العدلِ بينهم كما هو معروفٌ في هذا الشأنِ، لكن يَلِفتُ نظرَ المتأمِّلِ في القرآنِ الكريمِ هذا الحرصُ الشديدُ على «إقامةِ العدلِ» في المواطِنِ التي يصعُبُ فيها عادةً على المرءِ أن يلتزِمَ جادَّةَ الوسطِ فيما يفعلُ أو يقولُ، وأصعبُ هذه المواطِنِ التزامُ العدلِ مع الأعداءِ والأولياءِ على السواءِ، ومع القريبِ والبعيدِ على قَدمِ المساواةِ، وألَّا يتحيَّفَ المؤمنُ على البعيدِ أو العدوِّ قَيدَ شعرةٍ، وبخاصةٍ في باب الشهادةِ والقضاءِ، يقولُ اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. ومعنى الآيةِ: قُولُوا الحقَّ وإن كانَ على ذي قُربى.

ويقولُ تعالى في موطنٍ آخرَ أكثرَ صعوبةً وحرجًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

والقِسطُ في الآيةِ الكريمةِ هو «العدلُ»

ومعنى ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أن يكونَ القسطُ في القولِ والفِعلِ خُلُقًا راسخًا، وسجيةً حاضرةً في كل شهادةٍ يُؤدِّيها المؤمنُ، حتى لو كانت شهادتُه على نفسِه؛ كالاعترافِ أو الإقرارِ لخصمِه فيما شَهِدَ به عليه، أو كانت شهادتُه على والدَيه وعلى أقربِ الناسِ إليه.. فالمطلوبُ في كلِّ هذِه المواقفِ الصعبةِ أن يلتزِمَ المؤمنُ بقولِ الحقِّ، لا يحابي فيها غنيًّا من أجلِ غناه، أو قريبًا من أجل قَرابتِهِ، ولا يجور فيها على فقيرٍ أو مسكينٍ لفقرِه ومسكنتِه، وعلى المؤمنِ أن يعلمَ أن اللَّهَ سوَّى في إقامةِ العدلِ بين الأغنياءِ والفقراءِ،

وحذَّر منَ المحاباةِ والظلمِ أيًّا كانتِ الظروفُ والملابساتُ. .

ثمَّ يؤكِّدُ اللَّهُ سبحانه هذه الأوامر نفسها في موضعٍ آخرَ يقولُ فيه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وتتشابَه هذه الآيةُ مع سابقتِها في توجيهِ النداءِ الإلهيِّ للمؤمنينَ والقيامِ بأداء شهادةِ «العدلِ والحقِّ»؛ امتثالًا لأمرِه تعالى وابتغاءَ مرضاتِه وحسبةً لوجهه الكريمِ، وما تنفرِدُ به هذه الآيةُ عن سابقتِها هو نهيُ اللَّه تعالى للمؤمنينَ أن يحمِلَهم بغضُهم وكراهيتُهم لبعضِ الناسِ على عدمِ العدلِ معهم في الحكمِ والشهادةِ، وكذلك تنفرد الآية بتكرار الأمرِ بالعدلِ في موطن واحد. . ومعنى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾، أي: لا تحملنَّكم عداوةُ قومٍ على التفريطِ في العدلِ وإنصاف الناس.

وانظروا -أيها السادةُ المشاهدونَ- إلى خطر «العدل» في قضيةِ تعدُّد الزوجاتِ، وكيف أن مجرَّدَ الخوفِ من عدم

تحقيقه يَمنعُ المسلمَ شرعًا من التعدُّدِ:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وكيف أن الوقوفَ عند مثنى وثلاث ورباع دون الانتباهِ للعدلِ الذي هو شرطُ إباحةِ المثنى والثلاثِ والرباعِ، كيف أضاعَ حقوقًا وجلبَ مظالمَ وشرَّدَ أطفالًا وهدَمَ بيوتًا كانت عامرةً؟ وقد كان غيابُ العدلِ هو العاملَ المشتركَ في كل هذه المآسِي. .

شكرا لحسن استماعكم. . والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته



العَدْل

(٢)

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله. . وبعد؛

فالسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته. .

نستكمل ما بدأناه معكم في الحلقة السابقة في قيمة العدل والعدالة. .

وبالطبع لا يتَّسعُ وقتُ البرنامجِ لأنْ أشدُوَ على مسامعِكم كثيرًا مما قالَه سيدُ البلغاءِ وإمامُ الفصحاءِ ﷺ في الترغيبِ في العدلِ والترهيبِ من الظلمِ، ولكن تكفِي الإشارةُ إلى ندائِه عليه الصلاةُ والسلامُ بضرورةِ العدلِ في الحكمِ في قوله الشريف: «**إذَا حَكَمتُم فاعدِلُوا**»[١].

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٥٧٣٥) من حديث أَنَس بن مالك رضي الله عنه.

وأيضًا في المساواة بين الأبناء والبنات في المعاملة في قوله ﷺ: «**فاتَّقُوا اللَّهَ واعدِلُوا بين أولادِكُم**»(١).

وفي وصاياه بالزهدِ في طلبِ الإمارةِ خوفَ فواتِ العدلِ؛ فعن عوفِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنَّ شئتُم أنبأتُكم عنِ الإمارةِ وما هِي؟**» قال عوفٌ: فناديتُ بأعلى صوتي ثلاثَ مراتٍ: وما هي يا رسولَ اللَّه؟ قال عليه السلامُ: «**أوَّلها ملامةٌ، وثانيها ندامةٌ، وثالثُها عذابٌ يومَ القيامةِ، إلَّا مَن عَدَل**».. ثم قالَ: «**وكيف يعدِلُ مع قرابتِه؟!**»(٢).

ولا يذهبنَّ بنا الظنُّ أن «الإمارةَ» هي إمارةُ الدولِ والبلادِ فقط، بل هي الإمارةُ بأوسعِ معانِيها، والتي تنطبقُ على كل مسؤولٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، فإنه أميرٌ فيما أُسندَ إليه من وظائفَ وأعمالٍ.

يدلُّنا على ذلكَ قولُه ﷺ: «**ما مِنْ رجلٍ يلي أمرَ عشَرةٍ فما فوقَ ذلكَ إلا أتى اللَّهَ عزَّ وجلَّ مَغلولًا يومَ القيامةِ: يدُه إلى**

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٢٥٨٧) ومسلم في «صحيحه» (١٦٢٣) من حديث عمران بن بَشِير رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البزّار في «مسنده» (٢٧٥٦) والطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١٨/ ٧١/ ١٣٢) وفي «المعجم الأوسط» (٦٧٤٧) من حديث عَوف ابن مالك الأشجعيِّ رضي الله عنه.

عُنُقِه. . فكَّه بِرُّه، أو أَوْبَقَه إثْمُه»، ثمَّ قالَ: «أوَّلها ملامةٌ، وأوسطُها ندامةٌ، وآخرُها خزيٌ يومَ القيامةِ»[(١)].

ونستنبطُ من هذا الحديثِ أنَّ الإمارةَ والولايةَ تثبُتُ لأي مسؤولٍ يترأسُ في عملِه عشرةً فما فوقَ، وأنه مطالَبٌ بإقامة العدلِ بينهم بأشدَّ مما يُطلبُ من كبارِ الولاةِ؛ وذلك لسهولةِ تَطبيقِ العدلِ في العددِ القليلِ. . كما يُستنبطُ من الحديثِ الشريفِ التنفيرُ الشديدُ من طلبِ الولايةِ لما تشتملُ عليه من تَبعاتٍ يسهُلُ معَها الوقوعُ في مظالمِ العبادِ، وإهانتُهم والإساءةُ إليهم، وبخاصَّةٍ إذا كان الموظفُ أو المسؤولُ غيرَ مؤهَّلٍ لإدارةِ ما أُسندَ إليه من وظائفَ ومسؤولياتٍ.

وفي الحديث تحذيرٌ -وأيُّ تحذير- لهؤلاءِ الذينَ يُرهقونَ أنفسَهم، وقد يُريقونَ ماءَ وجوهِهم، من أجلِ الظَّفرِ بكرسيٍّ لا يَعلمُ سَلَفًا هل يستطيعُ أن يَنشرَ من فوقه العدلَ والرحمةَ والرفقَ بالعبادِ، أو أنَّ شيئًا من هذه المظالمِ لا يخطُرُ له على بالٍ.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٣٠٠) والطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (٧٧٢٠، ٧٧٢٤) من حديث أبي أُمامة رضي الله عنه.

ومما تجب مراعاته شرعًا -وقبل أن أختم كلمتي- هو: أن الأحاديث الواردة في باب العدل والمساواة تشير إلى أن مهمة القيام بالعدل ليست بالأمرِ الميسور عادةً، وبخاصةٍ في المواقف الدقيقة التي يجد الإنسان فيها نفسَه مدفوعًا بغريزته إلى التَّحيُّز والميل مع الهوى والغرض.

ولا يعني ذلك أن هذه الأحاديث الشريفة تنفِّر النَّاسَ من تقبُّلِ وظائِفِ الولايةِ والعَدلِ، فمِثلُ هذا الفَهمِ لا تَعرِفُه شريعةُ الإسلامِ التي تركَت لنا مئات المجلدات في فقه القضاءِ والإمامةِ والسِّياسةِ الشَّرعيةِ، وكلُّ ما هنالك هو أنَّ هذه الأحاديثَ حين تُنفِّر من طلبِ الإمارةِ، فليس لأنَّ الإمارةَ في حدِّ ذاتها مطلبٌ سيِّئٌ يجب الفرار منه، ولكن لعِظَم مسؤولية مَن يتولاها وخَطرِها في حياةِ النَّاسِ وجبَ أن يُدَقَّق النَّظر في اختياره، وألَّا يُفتح البابُ أمامها لكل من هبَّ ودبَّ، فهذه الأحاديث إنما تطلُب التدقيقَ الواجبَ في هذه الوظائفِ الخطيرةِ لحمايةِ الناس، وحفظِ حقوقِهم، وصَونِ كرامتِهم، وكلُّها مقاصِدُ عُليا من مقاصِد القُرآن الكريم والسُّنَّةِ المشرَّفةِ.

وفي هذا السِّياقِ نفسِه يجِبُ أن نفهمَ ما وردَ من قوله ﷺ: «القُضاةُ ثلاثةٌ: اثنانِ في النَّارِ، وواحدٌ في الجنَّةِ»[١]، وأيضًا وصفُه للإمام العادل بأنه أول مَن يستظلُّ بظلِّ اللَّه تعالى يوم القيامة[٢]، وأنه ممن لا تُرَدُّ له دعوة[٣]. . إلى آخر ما ورد في هذا الباب.

السادةُ المشاهدُونَ!

خيرُ ما أختمُ به حلقةَ الليلة هو دعاؤُه ﷺ الذي يبرهِنُ فيه على حنانِه وأبوَّتِه ورحمتِه بأمتِه: طائعِهم وعاصِيهم، برِّهم

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣٥٧٣) والتِّرمذيُّ في «جامعه» (١٣٢٢) وابن ماجه في «سننه» (٢٣١٥) من حديث بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه، وتمام الحديث: «رجلٌ عَلِمَ الحقَّ فقَضَى به؛ فهو في الجنَّةِ، ورجلٌ قضَى للنَّاسِ على جهلٍ؛ فهو في النَّارِ، ورجلٌ جارَ في الحُكمِ؛ فهو في النَّارِ».

(٢) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٦٦٠) ومسلم في «صحيحه» (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «سبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادِلُ. . .».

(٣) رُوي هذا المعنى في عدَّة أحاديث، منها ما أخرجه التِّرمذيُّ في «جامعه» (٣٥٩٨) وابن ماجه في «سننه» (١٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث حسن».

وفاجرِهم، تقيِّهم وفاسقِهم.. قالَ عليه الصَّلاةُ والسلامُ: «اللَّهُمَّ مَن وَلِيَ مِن أَمْرِ أُمَّتي شيئًا فَشَقَّ عليهم فَاشْقُقْ عليه، وَمَن وَلِيَ مِن أَمْرِ أُمَّتي شيئًا فَرَفَقَ بهِمْ فَارْفُقْ بهِ»[١].

صلَّى اللَّهُ وسلَّم وبارَكَ عليكَ:

يا رحيمًا بالمؤمنين إذا ما
ذَهِلت عن أبنائها الرحماءُ
يا شفيعًا في المذنبين إذا ما
أشفق من خوف ذنبه البرآءُ

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم
والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٨٢٨) من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الظُّلْمُ

الحمدُ للَّه ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدنا محمدٍ وآلِه . . وبعدُ؛

فالسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

السَّادة المشاهدونَ!

سبقَ في حلقةٍ سابقةٍ أن قُلْنا: إنَّ الأضدادَ تستدعي أضدادَها، وأن ما بينها من علاقاتٍ تُشبهُ علاقةَ المتضايفَيْنِ، مثل: خالقٍ ومخلوقٍ، فإن العقلَ لا يَتصوَّرُ معنى «خالق» إلَّا إذا تصوَّرَ معه معنى «مخلوقٍ»، وكذلك مخلوقٌ لا يُتصوَّر إلَّا بالإضافةِ إلى خالقٍ، وشيءٌ من هذا المعنى ينطبِقُ على علاقةِ التضادِّ بين العدلِ والظلمِ . . فهذان المفهومانِ وإن كانا غيرَ مُتضايفيْنِ إلَّا أنهما متضادانِ، وأنَّ أحدَ المفهومينِ يرتبطُ بالآخرِ . . فالعدلُ هو نفيُ الظلمِ، والظلمُ نفيُ العدلِ، وشرحُ مفهومِ «العدلِ» - وإن كفى في الدِّلالةِ على نفي الظلمِ- فإنَّه لا يكفي في شرحِ

مفهومِ الظلمِ وتحديدِ معناه وأنواعِه. . لذا تظلُّ الحاجةُ ماثلةً للحديثِ عن هذا المفهومِ.

والظلمُ هو الخروجُ عن حدِّ العدلِ والاعتدالِ في جميعِ الأمورِ، ومجاوزةُ الحقِّ إلى الباطلِ ويُسمَّى بالجَورِ، والظلمُ يكون بأكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ، وأخذِها ظلمًا، كما يكونُ بالتَّعدي على الناسِ بالإساءةِ بالقولِ، والإهانةِ بالضربِ أو الاستقواءِ على الضُّعفاءِ، ومن الظلمِ الفادحِ أكلُ مال اليتيمِ، وظلمُ الزوجِ لزوجتِه بالتقصيرِ المتعمَّدِ في تلبيةِ حاجاتِها التي تُقرُّها الأعرافُ والعاداتُ، ومن أظلمِ الظلمِ التسلطُ على البُرآءِ بتخويفِهم ومضايقاتِهم وترويعِ أُسَرهم وأطفالِهم، وكذلك مَطلُ الغنيِّ في أداءِ ما عليه من حقوقٍ أو ديونٍ للآخرينَ، وتأخيره حقَّ الأجيرِ والعاملِ والموظفِ، والجورُ في قسمةِ الحقوقِ ظلمٌ، ومحاباةُ الخاملِ ومساواتُه بالنَّابه ظلمٌ، والتفرقةُ في تكافُؤ الفرصِ ظلمٌ، ومنحُ الوظائف لمَن لا يستحقونَ ومنعُها عن المستحقينَ ظلمٌ. . ويطولُ بنا وقتُ الحلقةِ لو رُحنا نعدِّدُ الأمثلةَ التي تدلُّ على تغلغلِ الظلمِ في حياتِنا الاجتماعيَّةِ

وما يُعانيه غِمارُ الناسِ من مآسٍ لا يحتملونَها، ولا يملكونَ لها دفعًا ولا يجِدُون مِن بأسِها مَهْرَبًا.. ولهذا بلغَ اهتمامُ القرآنِ الكريمِ شأوًا بعيدًا في التحذيرِ من هذه الرذيلةِ القاتلةِ والمربكةِ لسيرِ الحياةِ الاجتماعيةِ.

وقد تعجَبُ -أيها المشاهدُ الكريمُ- حين تعلمُ أنَّ مفردةَ «الظلم» ومشتقاتِها تناوَلها القرآنُ الكريمُ في مئةٍ وتسعينَ آيةً من آياته الكريمةِ، وما ذاك إلَّا لتنبيهِ المؤمنِ على خطرِ هذه الآفةِ التي طالما كانَت وراءَ دمارِ الأممِ والشعوبِ والحضاراتِ في القديمِ والحديث.. وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ قبل أن تكونَ حقيقةً تاريخيةً اجتماعيةً.. ذكرها اللَّهُ تعالى في سورةِ النملِ في معرِض العذابِ الذي أصابَ «ثمود» نتيجةَ الظلم: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٠-٥٣]، والآيةُ كلُّها تدورُ حول عاقبةِ الظلمِ والظَّلَمةِ، والنَّصُّ على أن الظلمَ يُعقِبُ خرابَ

البيوتِ، حتى قال ترجمانُ القرآن: ابنُ عباس رضي الله عنهما: «أَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الظُّلْمَ يُخَرِّبُ الْبُيُوتَ»[1].

وممَّا يجبُ التذكيرُ به من آياتِ الذِّكرِ الحكيم والاتِّعاظِ بالوعيدِ المُرعِبِ والعاقبةِ الأليمةِ لمَن استمرأَ هذه الآفةَ البَشِعةَ، وما ينتظِرُه مِن هلاكٍ في الدنيا وعذابٍ في الآخرةِ - ممَّا يجِبُ التَّذكيرُ به هنا قولُه تعالى:

- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢].

- ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

- ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

- ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء: ٤٦].

---

(١) راجع: «مجمع البيان» للطَّبرسيِّ: ٧/ ٣٥٥، و«روح المعاني» للألوسيِّ: ١٠/ ٢٠٩.

- ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧].

.. .. ..

وكذلكَ الترهيبُ من الدَّمارِ كنتيجةٍ حتميَّةٍ تَعقُبُ الظُّلمَ والظالمَ:

- ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

- ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وكذلك التَّحذيرُ منَ الاقترابِ من الظالمِ ومصاحبتِه والرُّكونِ إليه:

- ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣].

والتَّنبيهُ على أنَّ الظَّالمَ خاسرٌ دائمًا ولا يُفلحُ أبدًا؛ لأنَّ هدايةَ اللَّهِ بعيدةٌ عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، وهذه الآيةُ تكرَّرت ثلاثَ مراتٍ باختلافٍ طفيفٍ في ألفاظِها.

ونختِمُ حَلقتَنا -أيُّها السَّادةُ والسَّيِّداتُ!- بأنَّ المئةَ والتِّسعينَ آيةً، والتي وردَت كلُّها في جريمةِ «الظُّلم»، وكما

سَبقَ من تلاوةِ بعضِها ؛ تُبيِّن أنَّ هذه الجريمةَ كما تكونُ بين الأفرادِ تكونُ بينَ الأممِ والدولِ التي يَظلِمُ بعضُها بعضًا ، وينطبِقُ عليها ما يَنطبِقُ على الدولِ التي بادَت وتلاشَت بسببِ الظلمِ، والأخطرُ من ذلك أن عقوبةَ الظلمِ إذا نزلَت على بلَدٍ أو قُطرٍ مِن الأقطارِ عمَّت وأخذتِ الصَّالحَ والطَّالحَ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥]، وذنبُ الصالحينَ هنا أنهم لم يقوموا بواجبِ النُّصحِ كما ينبغي لكفِّ الظَّلَمةِ عن ظُلمِهم. . ولذلكَ حديثٌ آخرُ.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.



الجِدالُ

المشاهدونَ الكرام!

مِمَّا أُصيبَت به مجتمعاتُنا في العَقْدِ الأخير صناعةُ الجدال، وادِّعاء المعرفة بلا سقف، والقُدرةُ على التحدُّث في موضوعاتٍ بالغة التعقيد متنوعةِ المجالِ؛ حديثَ الخبيرِ الذي يعرف الأَكَمَةَ وما وراءَها، ويُدلي بأعاجيبَ من القولِ وأفانينَ من التَّحليلات لا يستندُ معظمُها إلى أيِّ أساسٍ ممنهجٍ من عِلمٍ أو دراسةٍ مُتخصِّصَةٍ، وقد تولَّدتِ عن هذه الجائحةِ جائحةٌ أكبر تمثَّلَت في الجرأة على حُرْمَةِ التخصُّص العلمي، ومكانةِ العلماء المتخصِّصين مِمَّن أفنوا زَهرات أعمارِهم وسَكبوا ماء عيونهم في الدِّراسَةِ والتعلُّم والبَحْث.

وأصبحَ الجميعُ يعرِفُ كلَّ شيء عن أي شيءٍ، وقد أصابَ التخصُّصَ في العلم الإسلامي: عقيدةً وشريعةً وأدبًا ولغةً وثقافةً، شيءٌ غير قليل مِمَّا تموج به السَّاحةُ من هذا الجدَل المنفَلِت من ضوابطِ المعرفةِ والحوارِ العلميِّ والثَّقافي..

ويُسَوِّغُ هؤلاء المجادلون هجومَهم هذا، بأباطيلَ زعمُوا فيها أنَّ علومَ الإسلامِ ليسَت عِلْمًا بالمعنى الذي تتمتَّعُ به العُلومُ المعاصِرةُ من تخصُّصٍ دقيقٍ ودراسةٍ ممنهجةٍ، ومن ثَمَّ يجب أن تُفتحَ الأبوابُ على مصاريعِها لكلِّ مَن هبَّ ودبَّ مِمَّن زعموا لنا أن مهمةَ إصلاحِ الإسلام والمسلمين تقعُ على عواتقِهم وحدَهم دونَ غيرِهم، من المتخصِّصينَ في العِلم الإسلاميِّ.

ولقَد أشارَ القُرآنُ الكريمُ -أيُّها السَّادة!- إلى أشباهٍ لهؤلاءِ المجادلينَ في أوائِلِ سورةِ الحَجِّ، وذكَّرهم أوَّلًا في الآيتَينِ الثالثةِ والرابعةِ، ثم أعادَ ذكرَهم في الآيتين السَّابعة والثَّامنة..

وفي الآيتينِ الأولَيينِ ترتسِمُ معالمُ هؤلاءِ المجادِلين في صورة طائفة من جُهلاءِ النَّاس يُجادلون في «اللَّه» دون سابقِ علمٍ، تَدمَغُهمُ الآيةُ الكريمةُ بالجهلِ واتِّباعِ أخبثِ فصائلِ الشَّياطينِ وهم المردَةُ، وأنَّ اللَّهَ كتبَ على مَن يتَّبعهم من الناس سوءَ المصير: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٣-٤]، ثم تكتمِلُ

الصورةُ في الآيتَين: الثَّامنة والتَّاسعة فيَظهَرُ هؤلاءِ في صورةِ جُهلاء يجادلونَ في اللَّهِ دونَ رجوعٍ إلى علمٍ ولا استدلالٍ ولا كتابٍ يضيءُ لهم بدلالاتِ العَقلِ والنَّقلِ طريقَ ما يجادلونَ فيه، وذكرَ في وصفِهم أنَّهم أهلُ كِبرٍ، يُميلون أعطافَهم إعْرَاضًا وتكَبُّرًا، وأهلُ ضلالٍ وإضلالٍ للنَّاس عن طريقِ الحَقِّ، ونصيبُهم في الدنيا خِزْيٌ وهَوَانٌ من كثرة ما يذمهم النَّاس ويتأفَّفُون من ضلالهم، أمَّا في الآخِرة فنصيبهم عذاب الحريق: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنۡيَا خِزۡىٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج: ٨-٩].

والجَدلُ -أيها السادة المشاهدونَ- هو: حوارٌ بين اثنين حولَ مسألةٍ واحدةٍ قابلةٍ للبَحثِ، يُحاولُ كلٌّ منهما أن يصِلَ إلى حقيقةِ الأمرِ فيها عبر استخدامِ الحُجَجِ والبراهين، وهو منهجٌ من مناهجِ البَحثِ العِلميِّ التي تُفيد اليقينَ عند المسلمين، وهو عِلمٌ إسلاميٌّ، ابتكره المسلمون ولم يُعرف لغيرهم، وله قواعِدُ ومسائلُ وقضايا وشروط وآداب إذا التُزِمت كان جدلًا حسنًا مطلوبًا، وإن أُهمِلت كان جدلًا مذمومًا.

ومن هنا انقسم الجدل في القرآن الكريم إلى جدل حسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وجدل مذموم كما في الآيات السابقة من سورة الحج وغيرها كثير..

ويُستعمَل الجِدالُ كثيرًا بمعنى الجدلِ المَذمومِ، ويرادِفُه المراءُ، وقد وردَت في ذمِّه أحاديثُ كثيرةٌ منها قوله ﷺ: «ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليهِ إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»[1]، ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

ومنها: ما ورد في الحثِّ عن الابتعادِ عن الجَدل بغيرِ عِلمٍ، مثل ما روي عنه ﷺ من قوله: «**أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربَضِ الجنَّةِ لِمَن تَرَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا**»[2]، وذلك

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في «جامعه» (٣٢٥٣) وابن ماجه في «سننه» (٤٨) من حديث أبي أُمامة الباهِليِّ رضي الله عنه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث حسن صحيح».

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٨٠٠) من حديث أبي أُمامة الباهِليِّ رضي الله عنه، ومعنى رَبَضِ الجَنَّةِ: ما حَولَها خارِجًا عنها، =

للعواقبِ الوخيمةِ التي تترتبُ على هذا النوعِ من الحِوارِ، والتي تتمثَّل في صورة الغَضبِ أو اللُّجوءِ إلى الكذبِ حتى يغلِبَ صاحبَه، أو ادعاءِ العِلم وذمِّ الخَصمِ، وكلُّها عاهاتٌ خُلقُيَّةٌ مُهْلِكَة لكل من المتجادَليْن أو المتجادِليْن حول موضوع واحد.

المشاهدون الكرام!

مِمَّا يتصل بموضوع انتشارِ الجدَل بغير علمٍ ولا ضوابطَ، هذه الثِّقةُ في المعلوماتِ التي تُنْشر على الشَّبكاتِ العنكبوتيةِ، والتَّعامُلُ معها كأخبارٍ ومعلوماتٍ تتمتَّعُ بالصِّدقِ ويُعتمد عليها في الحوارِ الجادِّ، بل وفي بناء مواقفَ عمليَّة وخصومات شخصية.. وقد أصبحَ من السَّهل المعتادِ أن يُخبِرَك شخصٌ بنقدٍ لاذِعٍ لبعض الناس، وحين تُنكر عليه يبادرُك بحجَّتِه التي لا يرتابُ في صدقها ويقولُ لك: «مكتوبٌ على النِّت أو الفيس أو غيرهما».. وقد حدَث هذا معي شخصيًّا، ووجِهتُ بكتاباتٍ عليها صورتي ومذيَّلةٍ باسمي، ويعلم اللَّهُ أنها ليست إلَّا أكاذيب في أكاذيب.

= تَشْبيهًا بالأبْنِيَة التِي تَكُونُ حولَ المُدُنِ وتحتَ القِلاع. انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»: ٢/ ١٨٥.

وهنا أُذَكِّرُ نفسي وحضراتكم أيها السادة المشاهدونَ بأنَّ نبيَّ الإسلامِ صلواتُ اللَّه وسلامه عليه نبَّه قبل خمسة عشر قرنًا من الزمان إلى كذب مَن يتحدَّث اعتمادًا على ما يسمَعه دونَ تدقيقٍ أو تمحيصٍ، وأنَّ ذلكَ يكفي في أن يُوصم برذيلةِ الكَذبِ، ويُسمَّى كذابًا، ويكون عندَ اللَّهِ آثمًا.. يقولُ ﷺ: «**كَفَى بالمَرْءِ كَذِبًا -وفي رواية: كفى بالمَرْءِ إِثْمًا- أنْ يُحَدِّثَ بكُلِّ ما سَمِعَ**»[1].. فتنبَّه أخي المشاهد، واحذَر أن تتحدَّث بكل ما تسمع حتى لا تُكتب عند اللَّه كذابًا آثمًا.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم.. والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.



(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (المقدمة): ١/ ٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حُبُّ الجاهِ والسَّيطرةِ

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

أيُّها السَّادة المشاهدونَ!

من الأمراضِ الاجتماعيَّةِ التي لا يتوقَّفُ العلماءُ والحُكماءُ منذُ أقدَمِ العصورِ عن التَّحذيرِ منها - مرضُ «حُبِّ الجاهِ والسَّيطرةِ واستغلالهما في تحقيقِ المنافعِ الخاصَّةِ».

وللإسلامِ موقفٌ دقيقٌ في بيانِ هذا المرضِ الوخيمِ، الذي لا تتوقَّفُ آثارُه الضارَّةُ على صاحبِها، وإنَّما تتعدَّاه إلى طبقاتٍ مختلفةٍ من الناسِ، وموقفُ الإسلامِ في هذه القضيَّةِ هو التشدُّدُ في مراقبةِ صاحبِ الجاهِ ومحاسبتِه وكفِّ أذاه عن الناسِ.

والمقصودُ بالجاهِ هنا: هو القوَّةُ المستنِدَةُ إلى قُوَّةِ المالِ والسُّلطانِ وتملكُ التأثيرَ -إيجابًا وسلبًا- على سَيرِ المجتمعِ.

ولا يَحتاجُ الإنسانُ إلى عناءٍ في البَحثِ عن هَدْيِ الإسلام في هذا الأمرِ ليعلَمَ أنَّ الإسلامَ لا يُشَجِّعُ على السعي لطلبِ الجاهِ والبحثِ عن سلطانِه، ولكن يقرِّرُ مع ذلك أنَّ الجاهَ

إن سعى إليك فسوفَ يُعينك اللَّهُ عليه، وإن سعَيت له فسوفَ يَكِلُك اللَّهُ إليه؛ كما في قوله ﷺ: لعبد الرحمن بن سَمُرة: «**يا عبدَ الرَّحمنِ، لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَها عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»[١].

والقُرآنُ يَنْحو مَنحى تزهيدِ عامَّةِ المؤمنينَ من الجَري وراءَ الجاهِ أو امتلاكِ الإمارةِ، لما يُلازِمُها عادةً من علوٍّ في الأرضِ وفسادٍ في النَّاسِ إلَّا مَن عَصَمه اللَّهُ وحَفِظَه من هذا الوبالِ.. وقد جعلَ اللَّهُ الدارَ الآخرةَ للذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وانظرْ كيفَ اقترنَ العُلوُّ في الأرضِ بالفسادِ فيها.. وهو ما تتكشَّفُ عنه خلائِقُ الأممِ والدُّولِ الحديثةِ يومًا بعدَ يوم، وتُعاني منه أممٌ وشعوبٌ أخرى أيَّما مُعاناة..

وأروعُ ما تتكشَّفُ عنه الآيةُ الكريمةُ من دروسٍ أخلاقيَّةٍ واجتماعيَّةٍ هو تحديدُ «مقياسٍ» دقيقٍ تُوزَنُ به أقدارُ الناسِ، وتُقيَّمُ به استقامةُ حياتِهم أو اعوجاجُها، ذلكم هو ميزانُ:

---

(١) أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» (٦٦٢٢) ومسلم في «صحيحه» (١٦٥٢) من حديث عبد الرَّحمن بن سَمُرة رضي الله عنه.

«التَّقوى» الذي ذُيِّلَت به الآية وهو قوله تعالى: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»..

ومن الأخطاءِ التي يقَعُ فيها كثيرونَ، قَصْرُ معنى «التَّقوى» على بابِ العباداتِ فقط دونَ بقيَّةِ الجوانبِ الأخرى: السلوكيةِ والأخلاقيةِ، وكأنَّ التَّقِيَّ، عند كثيرٍ من الناسِ، هو ذلك الرجلُ -أو المرأةُ- المنكفئُ على عبادتِه، والمتردِّدُ على المساجدِ، والمنسحِبُ من المجتمعِ والمستقيلُ من الحياةِ العامَّةِ.. وهذا فَهْمٌ خاطئٌ أُصيبَت به الأُمَّةُ مؤخَّرًا وترسَّخ في عقلِها ووجدانِها حتى باتَت ظِلالُ هذه الكلمةِ تشعُرُ بالاغتراب عن المجتمعِ والعُزْلَةِ بعيدًا عن حركتِه وسَيرِه وضوضائِه.

مع أنَّ كلمةَ «التقوى» في تراثِنا مرتبطةٌ أشدَّ الارتباطِ وأوثَقَه بالجانبِ العمليِّ في الحياةِ، مِن فعلِ الخيرِ وتجنُّبِ الشُّرورِ والآثامِ واتِّقائِها.. والتَّقِيُّ بهذا المعنى -لا ريب- هو رَجُلُ مجتمعٍ صالحٍ قادرٍ على الدَّفعِ بالتَّنمية بكلِّ توجُّهاتِها الاقتصاديَّةِ والإنسانيةِ، ويبدو أنَّ الذي حملَ بعضَ المعاصرينَ على استبعادِ كلمةِ «التقوى» من قاموسِ

المصطلحاتِ الاجتماعيةِ هو مضمونُها الدِّينيُّ الذي تعرَّض منذُ بدايةِ القرنِ الماضي إلى شيءٍ من التشكيكِ في قيمتِه العمليةِ والتداوليةِ؛ أدَّى إلى زَحزحتِه وإحلالِ مصطلحاتٍ أخرى محلَّه، مثل: اشتراكي وقومي ورأسمالي وشُيوعي ونَهضوي ومحافظ وإصلاحي وما إليها من مصطلحاتٍ أخرى وافدةٍ لا تُعيرُ التفاتًا لخطَرِ العُلوِّ في الأرضِ ولا للفسادِ فيها من قريبٍ أو بعيدٍ. وكيف «والعُلوُّ في الأرض» هو الذي جاءَ بهؤلاءِ المتزعِّمينَ للثَّقافة المغشوشة التي تعادي كلَّ أصيلٍ في هذه الأمَّة، وأيضا الدُّعاةِ الجدُدِ بدعواتِهم التي انتهَت بنا إلى ما نحنُ فيه الآن.

السَّادة المشاهدونَ!

إنَّ الإسلامَ -والأديانَ الإلهيةَ كلَّها- لا يُقيمُ وَزْنًا، في تقييمِ الإنسانِ، لوجاهةِ الشكلِ ولا وسامةِ الصورةِ، ولا طولِ الأجسامِ أو عرضِها، وما كان لهذا الدِّينِ، ولا للأديانِ السابقةِ عليه، أن يُفاضِلَ بين الناسِ بأعراضٍ لا يملكونها، وأوصافٍ لا يستطيعونَ صنعَها ولا تغييرَها، أو يعلِّقَ نُظمَ الحياةِ الاجتماعيةِ والمعيشيةِ على الوجاهةِ أو

الثراءِ أو القوةِ الغاشمةِ، فكلُّ هذه العناصرِ لا وزنَ لها في تقييمِ قدراتِ الإنسانِ العلميةِ والعمليةِ، ولا هي بشيءٍ في التعرفِ على هذه القدراتِ، والعمل النافعِ وحدَه هو فَرقُ ما بين الإنسانِ العظيمِ والإنسانِ الآخرِ. . «**إِنَّ اللَّهَ لَا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم**»[1].

ومن بداهةِ القولِ أنَّ الأديانَ السماويةَ وقفت إلى جوارِ الشرفاءِ، سواءٌ كانوا من طبقة الأغنياءِ، أو من طبقةِ الفقراءِ، وأنَّ هذا الموقفَ أثمرَ ثمرتَه الكريمةَ في إنصافِ الفقيرِ الملتزمِ بمنظومةِ القِيَم الإنسانيةِ ومكارمِ أخلاقِها.

ولعلكم تتفقونَ معي أيها السادةُ المشاهدونَ في أن موازينَ تقييمِ الإنسانِ والإنسانيةِ في مجتمعاتِنا اليومَ قدِ اختلَّت واضطربت اضطرابًا شديدًا، إن لم تكن قد تراجَعَت أمامَ سطوةِ قيمٍ أخرى ماديَّةٍ ، قوامُها الشهرةُ والمالُ والأضواءُ، حتى أصبحَ من المشروعِ والمعتادِ أن تتعامِلَ مجتمعاتنا

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالدرهمِ والدينارِ في مجالِ التعاملِ بالقيم والأخلاقِ، ولا علاجَ لهذه الظاهرةِ الغريبةِ علينا إلَّا بتكاتفِ العلماءِ والمفكرينَ والسياسيينَ من أجل وضعِ تصوُّرٍ لصياغةِ مجتمعاتِنا الحديثةِ صياغةً جديدةً تجمعُ بين ضرورةِ التقيُّدِ بقيم التراثِ الأصيلةِ، والجديةِ في اقتباسِ العلومِ الحديثةِ وامتلاكِ مناهجِها وتطبيقِها.

وإذا كنَّا نؤمن إيمانًا عميقًا بالقول الشريفِ: «**اسْتَعِنْ باللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ**»[1]، وبالحكمةِ القائلة: «**لا يأسَ مع الحياة ولا حياةَ مع اليأس**» فإنَّا نقول: آن الأوانُ أن تبدأ أمتنا العربيَّةُ والإسلاميةُ في البحث عن خطةٍ تجتمعُ عليها القلوبُ قبل الأبدانِ، تلتقي وتتصارَح وتتكاشفُ، وتبحثُ عن العلاجِ الحاسم لعِلَلِنا وأمراضنا اللامعقولة واللامقبولة أيضًا.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

❊ ❊ ❊

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأُخوَّة الإنسانيَّة

الإخوة المشاهدون!

في حلقتِنا الأخيرةِ التي استمرَّت طوالَ هذا الشَّهرِ الكَريم، إطلالةٌ سريعةٌ على وثيقةِ الأُخوَّة الإنسانيةِ التي أصدرها الأزهرُ الشريفُ وحاضرةُ الفاتيكان برئاسة الأخ العزيز البابا فرنسيس..

وقد كانت البواعثُ الإنسانيةُ المشتركةُ هي نقطةَ الانطلاقِ التي شجَّعتنا على أن نتحدَّثَ سويًّا وبلغةٍ إنسانيةٍ واحدةٍ إلى العالم أجمعَ.. ومن جانبي كنتُ قليلَ الرجاءِ في أن تؤتيَ ثمارًا طيبةً تشجِّعُ على عملٍ كهذا.. وأستطيعُ أن أقول إن اللَّه تعالى أتاحَ لهذه الوثيقةِ من الانتشارِ، ومن اهتمام دوائرَ عالميةٍ بشأنها بأكثرَ مما كنا نتوقَّع، وربما كان الإخلاصُ في تقديم خدمةٍ متواضعةٍ للإنسانيَّةِ المرهقة هو من وراءِ النجاح النسبيِّ لهذه الوثيقةِ.

.. .. ..

لقد سبق إصدارَ هذه الوثيقة تأملٌ مشتركٌ طويلٌ في واقع عالمنا المعاصرِ، ومعايشةُ آلامِه وكوارثِه، وبخاصة: كوارثَ منطقتِنا التي نعيشُها ونتنفَّسُ مشكلاتِها آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ. . واتَّضحَ -وكما هو متوقَّع- أنَّ أخطرَ أسبابِ أزمةِ العالم اليوم يعودُ إلى تغيبِ الضميرِ الإنسانيِّ وإقصاءِ الأخلاقِ الدينيَّةِ، وإحياء النَّزعةِ الفردية والفلسفاتِ المادية التي تؤلِّه الإنسانَ وتضع القيمَ الماديةَ الدنيويةَ موضعَ المبادئ العليا الساميةِ. . ومع إيمانِنا العميقِ بالجوانبِ الإيجابيةِ والإنجازاتِ الرائعةِ غيرِ المسبوقةِ التي حققتْها حضارتُنا الحديثةُ اليوم في مجالِ العلم والتقنيةِ والطبِّ والصناعةِ وكل مظاهِرِ الحياةِ المادية ورفاهِها، إلَّا أننا لم نستطِعْ تجاهلَ التراجعِ الحادِّ الذي حدثَ في مجالِ القيم الروحيةِ والشعورِ بالمسؤوليةِ، وما نَتجَ عنه من طغيانِ شعورٍ جارفٍ بالإحباطِ والعزلةِ واليأسِ دَفعَ كثيرين إلى الانخراطِ إما في تيارِ التطرفِ الإلحاديِّ واللادينيِّ، وإما في تيار التطرفِ الدينيِّ والتشددِ والتعصبِ الأعمى، وإمَّا

بتبني كثيرٍ من الشبابِ لأشكالٍ من الإدمانِ لتغييبِ الوعيِ، وتدميرِ الذَّاكِرةِ الفرديَّةِ والجماعيةِ.

من هنا جاءتْ هذه الوثيقةُ التي تتحدَّث باسم الدين الإلهي: في مظاهرِه وتجلياته: في الأديان السماوية، لتخاطِبَ العالمَ من خلالِ ثوابتَ اتفقَ عليها الجميعُ. نذكرُ منها ما يلي:

- التشديد على أن الأزماتِ السياسيةَ الطاحنةَ مع الظلمِ وغيابِ عدالة توزيع الثروات الطبيعيةِ.. أعقبت أزماتٍ قاتلةً من الفقر والخرابِ والحروبِ وموتِ ملايين الأطفالِ جوعًا وعطشًا مع صمتٍ عالميٍّ غيرِ مقبولٍ.

- التنبيه على ضرورةِ توقف محاولاتِ تدميرِ «الأسرة» وضياعِ الأطفالِ، والتشكيكِ في أهميَّةِ هذا الدورِ في الوقايةِ من أمراضِ العصرِ وأخطارِه.

- التأكيد على أنَّ الهدفَ من الأديانِ هو الإيمانُ باللَّهِ وعبادتِه، وحثُّ الناسِ على الاعتقادِ بأنَّ لهذا الكونِ إلهًا يدبِّرُه ويَحكُمه.. وأنَّ الأديانَ هي ينابيعُ الأخلاقِ الكابحةُ

لضراوةِ النزعاتِ الشِّريرةِ التي تحوِّلُ حياةَ الناسِ إلى جحيمٍ، وأنَّ الأديانَ لم تكن -أبدًا- بريدًا للحروبِ، ولا باعثًا لمشاعرِ الكراهيةِ والعَداءِ والتعصُّبِ، ولا مثيرًا للعنفِ وإراقة الدماءِ، وأنَّ هذه المآسيَ التي ارتُكبت باسمِ الدينِ أو تحتَ لافتتِه هي حصيلةُ تأويلاتٍ منحرفةٍ لجأتْ إليها طائفةٌ من بعض رجال الأديان من أجلِ تحقيق مقاصدَ سياسيةٍ واقتصاديةٍ دنيويةٍ ضيقةٍ.. ولذلكَ طالبَت الوثيقةُ بالوقفِ الضَّروريِّ لاستخدامِ الأديانِ والمذاهبِ الدينية في تأجيجِ نيرانِ الكراهيةِ والعُنفِ.. وكذلك بالكفِّ عن التحدثِ باسمِ اللَّهِ لتبريرِ أعمالِ القتلِ والتَّشريدِ والإرهابِ..

وقد أكَّدتِ الوثيقةُ أن اللَّهَ لم يخلق الناسَ ليُقتَلُوا، وأنه -سبحانه- في غنًى عمَّن يُرهِبُ الناسَ باسمِه.

- والحريةُ حقٌّ لكل إنسانٍ: اعتقادًا وفكرًا وتعبيرًا وممارسةً، وتعددية الخلق: عقيدةً ولونًا وجنسًا وعِرْقًا ولُغةً، إرادةٌ إلهية ومشيئةٌ عُليا لا يُمكن تبديلُها ولا تغييرُها.

- والحوار والتفاهمُ ونشرُ ثقافةِ التَّسامح وقَبولِ الآخَرِ؛ يخفِّف كثيرًا من حِدَّةِ فلسفات الصِّراع والتصادُم، كما يساعدُ على احتواءِ المشكِلاتِ الناتجةِ عنها.

- وحمايةُ دور العبادةِ على اختلافِ أنواعِها واجبٌ تكفُلُه كلُّ الأديانِ والقِيَمِ الإنسانية والمواثيقِ والأعرافِ الدوليةِ.

- والإرهابُ ليسَ من الأديانِ، لا مِن قريبٍ ولا مِن بعيدٍ، حتى وإن رَفع الإرهابيون لافتاتِها ولَبِسوا شاراتِها، وإنما هو نتيجةُ تراكمِ أفهامٍ خاطئةٍ لنصوصِ الدينِ، ونتيجةُ سياساتِ الجوعِ والفقرِ والظُّلمِ والبَطشِ والتَّعالي.

- يجبُ وقفُ دعمِ الحركاتِ الإرهابيةِ بكل صنوفِها، ووقفُ إمدادِها بالمال والسلاحِ والحمايةِ.

- يجب ترسيخُ مفهومِ المواطنةِ القائِمِ على المساواةِ بين المواطنينَ في الحقوقِ والواجباتِ.. ويجب التخلِّي عن مصطلحِ الأقليَّاتِ لما يحمِلُه من معاني العزلةِ والإقصاءِ.. إلى نداءاتٍ أخرى كثيرةٍ نادت بها وثيقةُ الأُخُوَّةِ الإنسانيَّةِ في مجالِ الاعترافِ بحقوقِ المرأةِ، وحقوقِ الأطفالِ وحماية المسنِّين والضُّعفاءِ، وأمور أخرى.

واختتمت الوثيقةُ بنودَها بالدَّعوةِ للمُصالحةِ والتَّآخي بين أتباعِ الأديانِ، لأنَّه لا سلامَ بينَ الأديانِ إلَّا بالسَّلامِ بينَ علماءِ الأديانِ.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعِكُم

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته